سلسلة أوراق من التاريخ

١٢

المظلومون في التاريخ

شاكر مصطفى

ريع الدار

لهيئة مدارس أبناء وبنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

دمشق أوتوستراد المزة ص.ب: ١٦٠٣٥ ـ برقياً طلاسدار

هاتف: ٦٦١٨٩٦١ ـ ٦٦١٨٠١٣ تلفاكس: ٦٦١٨٨٢٠

المظلومون في التاريخ

الطبعة الثانية - ١٩٩٧

سلسلة أوراق من التاريخ

١٢

المظلومون في التاريخ

شاكر مصطفى

كلمة أولى

أكره الظلم والظالمين ...طبيعة فيَّ ما أدري من أين ورثتها. ولكن قلبي ينفجر لكل ظلم ومظلوم. وبيني وبين العدل حلف يدخل في تكويني ونسيجي الروحي. ولقد علمني هذا الحلف أن انظر على الدوام إلى الوجه الآخر للتاريخ، الوجه المطل على الجحيم!.

وتشقى إذا أنت أطللت على هذا الوجه الآخر. إن ألواناً من الظلم تتراءى لك من كل جانب كما لو أنها صور المعذبين في جحيم دانتي... ويحدثونك عن محكمة التاريخ العادلة وينتظرون منها النصفة والميزان.. وينصبون لها القاضي العجوز الأبيض اللحية والشعر وبيده القلم، وعيناه تبصان كمن يخرق بنظره السماء والأرض. قل إنه أعمى، وضلال ما تتوهمون. تلك الملفات التي تتراكم لديه وتتراكم جبالاً من الورق لن تفتح أبداً إلا إن شئت أنت أو شئت أنا فتحها والنظر في الوجه الآخر للتاريخ إن كان ثم ما يكشف الوجه الآخر!

من ألقوا من بني الانسان في جحيم الظلم، دفعوا به إلى الأبد. سيظلون خالدين أبداً في ذلك الجحيم ولو دفعت عنهم بألف برهان إلا أن تمتد إليهم يد تقلب الموازين. الخدعة الكبرى أن تظن بالتاريخ ظن الخير، وأن تترك الأمر إليه. إنك إذن للخاسر الخاسر! فما التاريخ إلا الانسان نفسه في مرآة ذاته. وإذا قال شاعرنا القديم زهير بن أبي سلمى:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد
ذا عفة فلعله لا يظلم

فقد قال تعالى ﴿إن الانسان لظلوم كفار﴾ ثم قال: ﴿إنه كان ظلوماً جهولا﴾ أتنتظر ممن كان ظلوماً كفاراً جهولاً أن يفتح الملفات المغلقة؟ ولو فعل فكم ذا يستطيع أن يفتح؟.

شاكر

المظلومون في التاريخ

هل يكون الانسان حقا اسير بعض الافكار التي انغرست فيه كالسهم الفضي وهو صغير؟ هل نحن حقا تكوينات كبعض الشجر تتعقد هنا، وتستطيل هناك، وتضرب جذرا في ناحية، وفرعا سامقا، في اخرى، وتلتوي احيانا او تلتف أو تغرق بالصدف التي تلقاها؟

يخيل الي احيانا اني ذلك الاسير، او تلك الشجرة، التي كونت عقدها واستطالاتها الصدف. في صباي الأول، شاهدت فيلما ما تزال ترن في خاطري منه الجملة الام، ترن الكلمة التي اراد ان يقولها صاحبه. الفيلم يحكي قصة محام اضطر في الدفاع عن بعض القضايا التي يؤمن بها، ان يظل يرافع ويرافع امام المحكمة ثلاثة ايام متتالية وبدون انقطاع. اتى بوعاء الماء وبالطعام امامه مع اوراق القضية، وظل يتكلم، ويتكلم، ويتكلم قالوا له: «ولكنها قضية خاسرة»، فقال: «ولكن القضايا الخاسرة هي التي تستحق الدفاع عنها». وربح في النهاية القضية الخاسرة.

منذ ذلك الوقت، وانا احب تحدي القضايا الخاسرة، الوجه الأخر المظلم للقمر هو الذي يثيرني لا الوجه المشرق. الحقيقة الخبيئة هي التي تجتذبني لا الاحكام المستقرة. المظلومون يدعونني

الى صفوفهم بنداء غاو أين منه نداء السيرين لاوديسيوس، الاحساس بالعدل عندي له هيب السياط في الظهور، صار اشبه بالمرض يذبحني دون سكين، العاثرون على

الدروب بعض من همومي المقيمة ويخيل إلي أني في هذه الخواطر التي سوف أعبر بها، سوف أكون مشدوداً إلى هؤلاء العاثرين، سوف أفتح ملف المظلومين في التاريخ. سوف أكون المدافع عن القضايا الخاسرة، أمن السهل أن يكون الإنسان محامي الشيطان؟ المظلومون في التاريخ قوافل من المحكومين، رميت في السجن الأبدي أحكمت حولهم الحدود والقيم فلا فكاك. فيهم الشعوب، وفيهم الملوك والحكام، وفيهم الشخصيات الشهيرة، كلهم فيما يقولون أصدر فيهم التاريخ أحكامه، أو لنقل على الأصح، فالتاريخ مظلوم بدوره، لنقل أن الناس صنعوا على لسان التاريخ تلك الأحكام، وكان الحكم قاسياً قسوة القيود في أعناق الأبرياء، رهيبا أحياناً كذبح الأطفال. ورددت الأجيال على توالي الأجيال الحكم على أنه قضية مقضية، وبعضها تفلسفه، وتجعل له الأيدي والأرجل، وتزيد حوله هالة الأساطير. ونحن نجرد من التاريخ صورة الحكم العادل، نحتكم إليه، نكتب له، نطلب منه الإنصاف حين يعجزنا إنصاف العصر. الحكمة كلها نضعها في هذا الشيخ الوقور الذي يرسل لحيته البيضاء حول السجل الأعظم، ويمسك على الدوام بالقلم وبميزان العدل والأحكام «التاريخ»، أمن الفجيعة أن أحرق أمامكم هذه الصورة الأسطورية للتاريخ؟ أتستدير أعينكم من الدهشة والفزع إن قلت، وأنا أعاني هذا العلم منذ ربع قرن، أن التاريخ الحكم العدل ليس إلا صدى ما نريد، صدى الأمنيات؟ وأما واقع التاريخ والسجل المستور فأمر آخر، ليس التاريخ عالم المثل والإنصاف الإلهي، إنه ليس إلا صورة الناس، يخطئ ويصيب بقدر ما يريد له الناس أن يخطئ ويصيب. إنا نعيره المثالية القدسية كأنما هو المعادل للظلم الاجتماعي الذي نرفض، نجعله ظل

العدالة الإلهية، وإنما يكتبه البشر للبشر وبآراء البشر. التاريخ أعمى، وإنما يبصر إن أبصر بأعيننا، بأعيننا نحن، ومن خلال ألوان نظاراتنا.

بول فاليري الشاعر الفرنسي المعروف كتب ذات يوم: «إننا ما نزال من التاريخ في حالة الاعتبار النظري والمراقبة المضطربة. التاريخ إنما يبرر ما نريد. إنه لا يعلم شيئاً بدقة وحزم لأنه يشتمل على كل شيء، ويقدم المثل على كل شيء. التاريخ أخطر محصول أنتجته كيمياء الفكر». أليس فاليري على حق يا ترى؟ وإذا كان الشخص الواحد يمكن أن يكون في وقت واحد المستر جيكل والمستر هايد، أفلا يكون اللعن والتقديس فيه متساويين ومن طبيعة ريبية واحدة؟ أفلا يحق لنا أن نقف على مسافة واحدة من الشك ومن اليقين في أحكام التاريخ؟ أليس صحيحاً أن نقول أن الحقيقة التاريخية ليس على الدوام أكثر من وجهة نظر، وأن التاريخ أعقد بكثير من أن تفسره أو تحيط به وجهة نظر. المحظوظون في التاريخ وجهات النظر فيهم لا تهمنا الآن، لن نهدم ما بني حولهم من أمجاد، ولو كان الكثير منهم إنما بناه الوهم وزيفت له الأساطير. المظلومون هم الذين يطلبون العون، تماماً كما يستنجد الهالكون في جحيم دانتي بأي زائر للجحيم، الأحاديث التي سوف أعبر بها هي محاولة إنصاف للمظلومين. مجرد محاولة.....

ألا يستحق سجناء الظلم التاريخي أن تمتد لهم يد منصفة؟

الحجاج الظالم الحجاج المظلوم

الحجاج، قل الاسم واسكت، إذن، فسحابة من التوجس والكره تغشى العيون كأنها قطع الليل، الحجاج، الغارق في الدماء حتى الأذقان، هو أحد الرموز الدموية للظلم، كتلة من الجبروت والإرهاب الذي يخرق العظم، كان هذا هو الحجاج بن يوسف الثقفي. ولو بدأت فقلت أن الحجاج مظلوم في التاريخ، لا نطلق ألف لسان بالاستنكار وقيل لي بألف صراخ: إنه شيخ الظالمين ورئيس منظمة القمع والإرهاب في التاريخ، دماء ضحاياه نهر يخنق كل صوت بالرحمة لهذا الذي تجعله الروايات قصير القامة، أخفش العينين، دميم الصورة، كأنه ابن اللعنة أو سليل فرعون، لا يوجد أحد في قسوة الحجاج الوحشية، ومن ذا الذي يجرؤ أن يدافع عن سفاح كان سيف جلاده أسرع من كلمته، أو يعذر رجلاً وراءه قبيلة مسعورة من الضحايا تسد الأفق؟ على أن الرجل، على ما يظهر، كان يصدر في أعماله عن قناعة مطمئنة بأنه إنما يرعى المصلحة العامة. كتب له بعض رعيته على المنبر ﴿قل، تمتع بكفرك قليلاً، إنك من أصحاب النار﴾. فكتب تحتها: ﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾.

أيهمنا رأي الحجاج في نفسه؟ ليس بالمهم هذا الرأي، فإن الرجل لا بد مدافع عن أعماله، ولكن هل كان الحجاج يعيش فقط على شفرة السيف؟

هل كان ما قدم للناس هو هذه السحنة المقطبة عند نطع الجلاد؟ إن صورة الرجل تختلف قليلاً إذا نحن تحولنا بها عن السيف والسياسة. إن صفحته هنا تضج بالسواد والدم المتخثر، وبالرعب الأخرس، أما الوجه الآخر للصفحة فدنيا مختلفة كأنما هي سيرة أخرى أو كأنما استعارها الحجاج من غيره. لقد كان الرجل أحد بلغاء العرب، وخطبائهم الكبار، وفي تاريخ الأدب العربي ظل كبيراً كبيراً، فهل يشفع له هذا بشيء؟ و لم يكن عبداً للمادة، لقد كانت عمالته السنوية مثلاً ٥٠٠ ألف درهم وقد بقي ٢٠ سنة والياً على المشرق كله من العراق إلى أقصى خراسان والسند، فماذا كان لديه عند موته؟ كان لديه فقط ٣٠٠ درهم.

أليس في هذا ما يلفت النظر إلى الوجه الآخر للحجاج؟ هذا الوجه الآخر ماذا عليه أيضاً يا ترى من ملامح السرايا التي اخترقت الأفق الشرقي للدولة الإسلامية ونزلت بالإسلام في حوض السند وأضافت إليه ما نسميه اليوم بالباكستان، وبنغلادش وإسلام الهند إنما كان الحجاج هو الذي أطلقها أول من أطلق بقيادة ابن عمه محمد بن القاسم الثقفي، والرايات التي زرعت من قمة إلى قمة فيما وراء النهر، وفتحت الإسلام على الترك، وجعلتهم الشعب الرابع في تكوين الأمة الإسلامية، تلك الرايات التي ما لبثت أن اطلعت هناك أمثال: البخاري والفارابي والبيروني وابن سينا، تلك الرايات إنما عقدها الحجاج أول من عقد، عقدها للقائد الأول الذي أرسله بالإسلام إلى ما وراء النهر، قتيبة بن مسلم الباهلي.

وماذا على الوجه الآخر غير هذا وذاك للحجاج أيضاً؟ بنى الحجاج أربع مدن: اثنتين منها في فارس واثنتين في سواد العراق، في موضع وسط بين البصرة والكوفة، أحدهما كانت زينة المنطقة وسماها «النيل»، وقد اندثرت، أما الثانية فهي التي ما تزال معروفة قائمة إلى اليوم باسم «واسط»،جعل جامعه وقصره ذا الشعبة الخضراء في وسطها وطوقها بسورين وخندق وأقام على الطريق إلى البصرة وإلى الكوفة أساطين على مسافات متساوية أراد أن يجعلها ويجعل عليها المبلغين، فإذا هو كبر للصلاة في واسط نقل هؤلاء التكبير من عمود إلى آخر حتى يكبر الناس معه للصلاة في المصرين. ونظم المدينة أسواقاً وأبواباً خمسة وجسوراً عائمة على الماء. بغداد التي بناها المنصور بعد ذلك إنما كانت تقليداً لهذه المدينة الحجاجية.

وماذا أيضاً في سجل الحجاج غير هذا وذاك؟ في سجله أيضاً وأيضاً أنه عرب الدولة في المشرق كله، عرب الدواوين وعرب النقود. ضرب الدراهم والدنانير بالعربية، وضبط عيار المعدن الثمين فيها، كما ضبط المكاييل والأوزان خوف التطفيف، وفي سجله أنه أقبل على الموارد الزراعية، وهي أساس الخراج فوفر لها أراضي البطائح والأراضي الموات، وأقام الجسور على مجاري المياه، وقدم القروض للمزارعين.

وإذا كان معظم هذه الأعمال قد انقرض فإن له عملاً لا تزال الأجيال العربية الإسلامية تدين له به اليوم وإلى الأبد. رأى اللحن يركب الألسن، ورأى صحيح الكلام يضطرب بالقراءة دون إعجام؟ فانصرف همه رأساً إلى القرآن الكريم كيف يحفظه؟ دون أن يلحن فيه اللاحنون؟ كيف يحفظه من الألسنة التي يأخذها العوج ومتشابه الأحرف والتصحيف؟ المحاولة الأولى التي حاولها أبو الأسود الدؤلي من قبل لم تفلح

كثيراً في ضبط الأمر، وفزع الحجاج إلى كاتبه نفط بن عاصم الليثي الذي وضع له إعجام الأحرف وتنطيقها، كما وضع له الشكل للحركات، وكتبت المصاحف المعتمدة بالإعجام والحركات بين يديه، وأرسلت إلى الأمصار لتكون مصاحف الناس.

ترى بعد كل هذا، أليس هذا الظالم الأكبر، بالمظلوم الأكبر أيضاً؟ أليست أشباح قتلاه التي منعت صورته الصحيحة عن الناس قد استطاعت الانتقام منه ومن ظلمه وإلى الأبد؟ ولو وضعت الدماء في ميزان وهذه الأعمال، فأيهما يرجح يا ترى؟ لقد ترجح الأعمال، ولكن الدماء تظل تصرخ، تصرخ في الظالمين.

ابن جحاف

ابن جحاف، من ذا الذي سمع بهذا الاسم؟ ابن جحاف، ابن جحاف. حتى أصداؤه ماتت على الزمن، فما يذكر أحد حكاية هذا القاضي الأندلسي مظلوماً أم ظالماً، بطلاً من أبطال الإسلام أم مجرد مغامر عبر التاريخ صدفة. قصة ابن جحاف هي قصة سقوط قطعة من الفردوس الأندلسي الضائع في أيدي الفرنجة. لقد كان أحد النسور التي احترقت أجنحتها باللهيب الفرنجي يوم اقتحم الفردوس، افترس الفردوس محا ظل الإسلام في الفردوس، وملوك الطوائف كالقطط العمياء، همها أن يمزق بعضها بعضاً، وأن يعض بعضها أملاك بعض.

القصة كانت قصة «بلنسية العروس المرمرية» على الشاطئ الإسباني الشرقي. كانت في أواخر القرن الخامس الهجري من مملكة طليطلة، فلما استولى الأذفنش ملك قشتالة على هذه المدينة وعد صاحبها القادر بن ذي النون أن يسيره إلى بلنسية ويعينه على ملكها. وقبل هذا الرجل أن يكون أجير الملك القشتالي الذي ذبح طليطلة وأرهق بلنسية بالضرائب ليرضي جشع القشتاليين، وتنازل لهم عن بعض الحصون كرماً وسماحة وزلفة. كل ذلك ليبقى له اسم الملك. سرير الملك، وأي سرير ذليل كان!

وظهر عل الساحة بعد ذلك فارس من المرتزقة الجلالقة اسمه روذريق تعرفه المصادر العربية باسم «الكامبيطور»، فجمع الرعية وفرض الأتاوة السنوية الضخمة على صاحب بلنسية المسمى بالقادر وهو غير قادر. فكان من المذلة يدفعها عن يد وهو صاغر. أما أهل بلنسية فكانوا بركاناً من الغضب المكبوت. كانت أصداء معركة الزلاقة التي سحق فيها «المرابطون» الجيش القشتالي قبل سنوات لا تزال طرية في أسماعهم، تهزج، وتبعث في الأعين ألف أمل وأمل. وكانت عزة الإيمان هباً يحرق الصدور أو كاللهب، وكانت المظالم تقصم منهم الظهور، فيتطلعون هل من فرج؟

وأخيراً انفجر الغضب، اجمع الناس على الخلاص من القادر، وتزعم الحركة قاضي المدينة أبو أحمد جعفر بن عبد الله ابن جحاف يعاونه أهل الحل والعقد في البلد، وبعثوا فاستنجدوا بقائد المرابطين في الأندلس، وتلقوا السرية التي أرسلها لمعونتهم في ظاهر بلنسية، ثم عاد ابن جحاف فقبض على الملك القادر الذي وجد مختفياً في حمام القصر ومعه صندوق من الحلي والجواهر. فقتل وطاف طائف برأسه في الأسواق، ورميت جثته في بعض الحفر.

كان ذلك في رمضان من سنة ٤٨٥.

ثلاث سنين وأربعة أشهر وسبعة أيام، دامت دولة ابن جحاف في بلنسية فأما الذين عادوه فقالوا: أنه ضمح ببصره إلى قضية القاضي محمد بن عباد الذي أسس سلالة مالكة في إشبيلية، أراد أن يقلده فما أحسن النظر ولا ساعده القدر. قالوا: أنه تبوأ سدة الرئاسة ورتب أرزاق الجند والخدمة واستشعر غلظ الرؤساء، واظهر أبهة الملك فكان يجلس مكتنفاً بالوزراء والفقهاء والزعماء والغلمان أمامه. ويركب فيتقدمه العميد

والطرد؟ ويتأخر عنه الجند وتستقبله المصانعة بالدعاء والثناء، وكان يزداد على الدوام غلظة وحجبة.

وقالوا: أيضاً أنه احتوى على ما في آل ذي النون من الأموال والأثاث وذخائر الملوك، وأنه حين طالبه بها «الكامبيطور» بعد سقوط بلنسية فيما بعد أمسك منها ذخيرة نفيسة وأنكرها، وحلف أنه ما رآها، ثم عثر عليها عنده فكان ذلك سبب قتله. وقالوا: أيضاً وأيضاً أنه هادن «الكامبيطور» الكافر كغيره، وإن هذا اللعين فاوضه على أن يخرج جند المرابطين من البلد، ويلقيهم مع مقام القادر ويحميه ويقاتل عنه، فطمع ابن جحاف في ذلك وقبل. بل إن المصادر الفرنجية تتهم ابن جحاف أيضاً بالغدر ونكث العهد ونهب الأموال. ألم يكن ابن جحاف مظلوماً يا ترى؟ في بعض هذه التهم إن لم يكن في كلها؟

الصورة الأخرى لابن جحاف قد تكشف أمره. نصب روذريق الكامبيطور نفسه وارثا للقادر ومطالباً بثأره وأمواله وضرب النطاق على بلنسية يقطع طرقها، فالعابرون منها وإليها بين قتلى وجرحى. وحاول ابن جحاف مسالمته بالمال والمفاوضة لأنه لا يقوم له بالقوة. فكان للكامبيطور في كل يوم مطلب جديد. طلب أن ينزل مع جيشه حول بلنسية. ثم طلب أن يتسلم موارد المدينة. ثم طلب أن يكون ولد ابن جحاف رهينة عنده. وأغلق ابن جحاف أبواب بلنسية وبعث يطلب النجدات، فلما قدمت واستبشر بها الناس، هربت أمام الكامبيطور دون حرب وتركت بلنسية لمصيرها الفاجع، وقرر ابن جحاف، ماذا؟ قرر الدفاع حتى الموت.

عشرين شهراً هذا الدفاع اليائس. لا يعين المدينة أحد. قطع الكامبيطور عن بلنسية الطرق والمرافق ونصب المجانيق ونقل الأسوار،

أحد الذين حضروا تلك الأيام في بلنسية كتب في أمرها كتاباً يشبه البكاء، قال: عدم الناس الطعام وأكلوا الفئران والكلاب والجيف. ولم يبق في المدينة ما يدب على أربع، وأكل الناس الناس، ومن مات منهم أكلوه بعد أن أكلوا الجلود والدواب. والمدينة صامدة... صامدة. ومن فر منها مستسلماً للعدو فقئت عيناه، أو قطعت يداه أو دقت ساقاه، أو قتل وامتلأت الرياض وبواسق الأشجار حول بلنسية والصوامع بالجثث معلقة. كل ذلك وابن جحاف هو روح هذه المقاومة.

ولما انتهى الصبر ولا غوث، اجتمع أهل المدينة إليه ورأوا أن يخرج إلى الكامبيطور في طلب الأمان، وخرج. خرج مرغماً وعقد معه العهود والمواثيق وفتح له الأبواب. لم يمض قليل على استسلام المدينة حتى استخرج الكامبيطور من أهلها جميع آلات الحديد. فمن وجد عنده شيء منها قتل. وحول جامع المدينة إلى كنيسة ثم حبس وجوهها في القصر لا يطلقهم إلا بمائة ألف مثقال من الذهب. وأما ابن جحاف فطالبه بذخائر القادر، فلما أخذها أحاله إلى المحاكمة. جمع الناس، فقال: «ما جزاء من قتل سلطانه عندكم في شرعكم؟» فلما وجموا قال: «جزاؤه عندنا الإحراق بالنار مع أهله».

وأوقدت في ساحة المدينة التي عرفت فيما بعد باسم «رحبة القاضي» نار عظيمة كانت تلفح الوجوه من بعد، وجيء بالقاضي ابن جحاف مع أهله وأولاده، فلم يعف الكامبيطور عن الأهل والأولاد إلا بعد ليت، وحفرت للقاضي، حفرة طمر فيها إلى وسطه ثم ضمت النار نحوه. فلما دنت منه، قال: «باسم الله الرحمن الرحيم»، وجعل يضم أقباسها إلى جسده بيده يستعجل المنية. ترى بعد هذا هل كان ابن جحاف مجرد مغامر أم بطلاً مظلوماً من أبطال الإسلام؟

قسطنطين الأخير

في تاريخ سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م بأيدي السلطان محمد الفاتح العثماني ثم قصة ذهبت مثلاً. يروون أن هذا السلطان كان يضرب الحصار على تلك المدينة، وأنه كان ينصب أمام أسوارها أكبر المدافع التي عرفتها الدنيا حتى عهده، أما أهل المدينة وبطاركتها الكبار فكانوا يتناقشون في أمر أهم لديهم من سقوط المدينة. يتناقشون: كم ملكاً من الملائكة يمكن أن يقف على رأس دبوس؟ وسقطت بالطبع القسطنطينية.

الذين يروون الحكاية يضيفون إليها الحديث عن تهاون إمبراطور القسطنطينية في الدفاع عنها، عن قبوله بانكماش الإمبراطورية البيزنطية، إمبراطورية الروم العظمى التي لم تستطع الجيوش الإسلامية خلال ثمانمائة سنة أن تكتسحها إلاّ بضعة آلاف من الهيكتارات تضم العاصمة وما حولها.

هؤلاء الذين يحكون هذا وذاك لماذا يظلمون ذلك الفتح الذي اكتسح عاصمة الإمبراطورية الرومية آخر إمبراطوريات العصور الوسطى؟ ذلك الفتح الذي أطلق الإسلام حتى أعماق أوروبا. ذلك الحدث الانقلابي الذي وضع الحد الفاصل بين العصور الوسطى والحديثة؟ لماذا يريدون له أن يكون مجرد معركة هينة؟ لماذا يلقون باللائمة فيه على الإمبراطور

الذي أهمل أو أساء الدفاع وعلى العلماء الذين اهتموا بدك الأسوار بالملائكة والدبابيس؟

لكي نعرف، دعونا نخترق جدار الزمن إلى ما قبل ٥٢٧ سنة، إلى مثل هذه الأيام من سنة ١٤٥٣ ميلادية. ودعونا نقف على ضفاف البوسفور. القسطنطينية لم تكن قد حملت بعد اسم استانبول. أسوارها الحجرية العنيدة التي تحاذي الماء، والمثلثة الجدران. كانت تحمل ذكريات نصرها على عشرات الحصارات التي ضربتها منذ القديم، من الفرس والعرب، ومن البلغار والسلاف ومن البنادقة، وهي تشهد اليوم حركة حصار جديد أعلامه تركية: حمراء وخضراء، ولكن جنوده من جند الإسلام الذين لم تشهدهم تلك الأسوار منذ الأيام الأموية قبل أكثر من سبعة قرون.

قائد الحصار كان شاباً في العشرين من العمر هو السلطان محمد. إرادة حديدية كان، وجيشه هو أقوى جيوش الدنيا. وحين أمر أن تبنى له شمال القسطنطينية قلعة لقيادة الحصار، نزل ألف بناء وألفا عامل على الفور مع عدة آلاف من الجند فبدؤوا البناء. جميع أهالي القسطنطينية احتشدوا على الأسوار، حتى الإمبراطور، ينظرون ماذا يجري؟

الرعب سكن المدينة. سال في الأزقة محرقاً لزجاً. سحق الناس لدرجة أن الإمبراطور بعث إلى الذين يبنون القلعة بوجبات الطعام، وحين ذهب رسله إلى السلطان يسألون عن الغرض من القلعة، كان جزاؤهم الموت. وعرف الإمبراطور أنها النهاية، كل من في المدينة استنفر حتى الأطفال، كدست الأسلحة، الأحجار، الزيوت، المواد الخارقة، الأخشاب، مواد التموين، أحواض المياه حتى أبواب المدينة الخمسون سد معظمها، ونصبت المدافع في فتحات الأبراج الأربعمائة، والإمبراطور بقامته المديدة

النحيلة ووجهه الأسمر الخمسيني يشرف على كل ذلك بنفسه. وكانت النجدات الأوروبية تأتي القسطنطينية في البحر، ولكن في عدة مئات فقط، وتشترط توحيد الكنيسة الشرقية مع الغربية، وتقيم قداس الوحدة تحت قبة أيا صوفيا، بينما كان أهل القسطنطينية يكظمون الغضب المقهور ضدها. ويهمسون فيما بينهم وبين أنفسهم:

«رؤية عمامة السلطان في هذا المكان أفضل من رؤية قبعة الكاردينال وتاج الباب المثلث».

في الطرف الإسلامي المقابل كان السلطان محمد، بعد ثلاثة أشهر من الحصار والاستعداد، قد نجح في صنع أضخم مدفع عرفه العالم حتى عهده: «المدفع البرونزي المبتكر» قذيفته كتلة من حجر الصوان تزن ٥٥٠ كيلو غراماً إلى بعد كيلو مترين. كانت أسطوانة القذف بقطر متر واحد وبطول ثمانية أمتار. هذا المدفع كان انقلاباً في السلاح العسكري العالمي يومذاك، بعد أشهر أخرى مر بها فصل الشتاء ظهر في مطلع الربيع التالي على صفحة بحر مرمرة سلاح السلطان الآخر، أسطول بحري بناه سراً، قوامه خمسون سفينة حربية كاملة، من حولها ثلاثمائة وخمسون سفينة أصغر حجماً، وحين عاد الإمبراطور البيزنطي يحصي قواه أصاب الهلع سكان المدينة. ستون ألفاً، لكن ليس فيهم سوى سبعة أو عشرة آلاف يصلحون للقتال.

بعد أيام من ظهور الأسطول بدأ الحصار الفعلي. مئات الرايات الخضراء والحمراء ماج بها المعسكر العثماني، قرع الطبول والصنوج ونفير الأبواق كان يصم الآذان، خيام السلطان الحمراء والذهبية ضربت على بعد خمسمائة متر فقط من بوابة المدينة الغربية «بوابة رومانوس»، والمدافع التركية الضخمة بدأت هدم الأسوار وفتحت فيها فجوات تزيد

على أربعمائة وخمسين متراً. كل ما لدى القسطنطينية من قوى ومن فن حربي بذل لسد الفجوات بالأشجار، بالصناديق وبراميل التراب، وبالأكياس وبالأقفاص وألواح القصب، في انتظار أن تأتيهم أي معونة من الغرب، النواقيس كانت تقرع باستمرار لسد الفجوات الجديدة ونقصت كميات الطعام وحين رأى المحاصرون السفن العثمانية تنقل على العربات فوق البر لتنزل في القرن الذهبي المرفأ المغلق بالسلاسل الضخمة في شمالهم افترس اليأس كالغول كل النفوس، الإمبراطور نفسه أشار عليه المجلس الإمبراطوري بالهرب فلم يقبل. الشوارع غصت بآلاف المسيرات تحمل الصلبان والأيقونات وتصرخ «كيريا لايسون» (يارب ارحم) دعاء الكنيسة وهي متجهة إلى أيا صوفيا، مصابيح هذه المسيرات والشموع والفسيفساء الذهبية رأت عناق الدموع مع الأدعية فيما كان الجنود على الأسوار يتساقطون تحت النيران والسيوف والحجارة المنهارة. الإمبراطور بقي يقاتل عند بوابة المدينة الكبرى خلع زخارفه الملكية ليموت ميتة جديرة بالأباطرة.

حين انهارت البوابة ودخل الجيش العثماني، لم ينجح أحد في نوال الجائزة التي وضعت لمن يأتي بالإمبراطور الثامن والستين بعد المائة من أباطرة الروم قسطنطين التاسع. قسطنطين الأخير لم يعثر عليه أحد. ألم يظلم التاريخ هذا الإمبراطور حين اتهمه بالإهمال وإنما دفع ثمن التركة التي خلفها له السابقون؟ ألم يظلم الجند الذين دافعوا عن القسطنطينية حين جعلهم يناقشون في الملائكة والدبابيس؟ ألم يسلب السلطان محمد الفاتح زهو نصره بهذا التهويل من قبل الفتح؟

أم إلى هذا قصدوا قصداً لأنه من فتوح الإسلام الكبرى؟

مروان الحمار

حديث اليوم عن عاثر آخر من عاثري الحظ في التاريخ. فعلى يديه انتهت على الأقل الدولة الأموية، اسمه لا يعجز أحداً، فقد ربطوا به لقب الحمار، وأطلقوه وراءه عبر العصور، فهو «مروان الحمار»، لأنه فيما يعللون كان الصبور الصبور، وقد يترفقون فيقولون مروان الجعدي ينسبونه إلى أستاذه في الفكر والفلسفة «الجعد بن درهم». لأنهم يتهمون هذا الأستاذ في دينه فهو ليس عاثر الحظ فقط، ولا الحمار فقط، ولكن المتهم في الدين أيضاً، ونهاية الرجل كانت رأساً مقطوعاً في إحدى كنائس بوصير بأرض الفيوم في مصر، وأولاده مشردين قبض على أحدهم بعد ٣٣ سنة من الهرب، فقضى بقية عمره في السجن العباسي، وأهلاً مزقتهم السيوف بين دمشق ونهر أبي فطرس في فلسطين ونثرت عظام موتاهم نثراً في الهواء.

هذه هي آخر القصة، نهايتها الفاجعة المأساوية، فما أولها؟ ومن هو في واقع التاريخ مروان الحمار؟

على جبال القفقاس كانت البدايات، الدروب هناك، زحف الثعابين، والصخور زرقاء حمراء كأسنان الغيلان، والوديان أبعاد ضائعة تحس على صوت الصدى الهارب أن بعضها يركض وراء بعض، وغابات اسودت لكثرة ما صمدت للصقيع، وثلوج ثلوج ثلوج ما يكاد يذيبها أي صيف.

عند ذيول هذه الجبال الممتدة ما بين بحر الخزر والبحر الأسود سداً جباراً من سدود الأرض كانت تنتهي حدود الدولة الإسلامية أواخر العهد الأموي، والناس هناك خلائط من الكرج والأرمن والداغستان والشركس والخزر، والعرب فيهم قليل، ولكنه الحكم الأموي والقيادة للعرب المسلمين. من وراء تلك الجبال في الشمال كانت تقوم مملكة الخزر ثم أرض الصقالبة الروم الذين كانوا في ذلك العهد بعضاً من بدائية الأقوام، لا حضارة ولا دين، والخزر أنفسهم لم يكونوا على دين من أديان السماء، ويعيشون على التجارة ويتصلون قبل الإسلام وبعده بالسكان في جنوب القفقاس عبر شقة ضيقة بين بحر الخزر وجبل يسمونها «باب الأبواب».

عند هذا الباب، وقبل انهيار الدولة الأموية بعشرين سنة، ظهر شاب أموي، صلب العود والإرادة والصبر، في حوالي الثلاثين من العمر. يحارب بجانب أبيه محمد بن مروان عم الخليفة وحاكم المنطقة، والخليفة يومذاك هو هشام بن عبد الملك وحين توفي محمد هذا بعد سنوات خلفه في حكم الناس وفي قيادة المسلمين هناك هذا الابن الصلب مروان بن محمد. خمس عشرة سنة ظل مروان على هذا الثغر الإسلامي يحارب، ولقد عبر الجبال الزرقاء القفقاسية إلى الجانب الآخر شماله، ونزل أرض الخزر وحمل إليهم الإسلام، وأوغل ثم أوغل وأوغل حتى تلك البقاع السوداء الغابية، التي تقع فيها موسكو اليوم. لأول مرة ولآخر مرة أيضاً رأت تلك السهول الغارقة في الضباب ألوية الإسلام تخترق غاباتها، والأنهر والخيام الجلدية وبيوت الخشب المضروبة في حناياها. في إحدى الغزوات عاد مروان بن محمد من تلك الأراضي بمائة ألف أسير. المؤرخون، حتى المؤرخون الإسلاميون، يذكرون دخول الإسلام إلى

أوروبا عبر الأندلس وعبر صقلية وأخيراً عبر القسطنطينية. أبداً لا يذكر أحد منهم دخول الإسلام، وفي ذلك العهد المبكر، إلى أوروبا عبر هذا الباب الرابع، عبر جبال القفقاس. ينسونه لأن مروان بن محمد عقب هذا النصر عاد إلى بلاد الشام التي اضطربت، وتعاقب على خلافتها أكثر من خليفة، فتسلم بنفسه الخلافة، كان شيخ بني أمية يومذاك، وسيفهم الأقوى والأصلب. رأى البلاد تموج بالفتن وبالطواعين، فنقل عاصمته إلى حران في بلاد الجزيرة، وبدأ يبني لنفسه عاصمة جديدة، على مقربة منها أنشأ جامعها والقصر والأسوار والبيوت، ورأى الجيش ممزق الولاء بسبب تركيبه القبلي قبيلة قبيلة، فحل الجيش وأعاد تكوينه على أساس الكتائب، واختار له القيادات من الأكفياء، وأعاد تنظيم الدواوين والكتاب والدولة، ورأى الثورات تنفجر في كل مكان بسبب ما تراكم من المساوئ في الحكم قبله فحاربها واحدة واحدة حتى خمدت النيران، بدا كأن الدولة الأموية كلها كانت في نهضة جديدة، في يقظة، وكان ذلك كله في خمس سنوات، معركة واحدة فقط خسر، «معركة الزاب» أمام الثورة العباسية. ما كان يخطر في باله يوم خسرها أنها ستذهب بالدولة الأموية، كان الجيش الذي هزم هو جيشه الجديد في الجزيرة، فلما تراجع إلى الشام تخلى عنه الأمويون في الشام، قالوا: «تخلى عنا وحرمنا الجيش والعطاء ومركز الدولة فلنتخل عنه». وحين وصل مصر لم يترك له الثوار العباسيون فرصة استرداد الأنفاس، دلهم أحد الأقباط على مخبئه في كنيسة بوصير فكانت النهاية رأساً على الرمح. أما جبهة الخزر، فقد جمع الخزر جموعهم بعد ذلك حين علموا بموت مروان فتدفقوا كالسيول على أرض الإسلام تدميراً ونهباً، كل ما فعله الخليفة العباسي أبو جعفر الذي نعرفه بالمنصور أنه أقام عدداً من الحصون والمدن لحماية الحدود

منهم، وبعد سنوات تهـود ملكهـم وانتشـرت اليهودية فيهـم، فهـم هـم أنفسهم يهود روسيا ويهود نيويورك اليوم حملة الصهيونية. لو تابع مروان بن محمد الجهاد و لم تشغله الخلافة فهل كـان للقضيـة الفلسـطينية وجـود اليوم يا ترى؟ ومروان هذا الذي ربطوا الحمار باسمه أليس بالمظلوم الكبير العاثر الحظ في التاريخ؟!

دونيا خوانا المجنونة

دونيا خوانا المجنونة هي حديثي اليوم، كذلك سماها معاصروها وكذلك يأتي اسمها في التاريخ، كانت ابنة ملكين، وأم اثنين من الأباطرة، وأربع من الملكات، وجدة لإمبراطور ملك نصف الدنيا وحده، وجدة جميع الأباطرة في أشهر الأسر الملكية الأوروبية «أسرة هابسبورغ». وقد حملت على رأسها تاج أكبر إمبراطورية عرفت حتى عصرها، قبل اليوم بخمسمائة سنة، تاج ألمانيا والنمسا وهولندا وأسبانيا وأميركا الوسطى كلها وأميركا الجنوبية كلها، كان لها وعاشت ٧٨ سنة ومع كل ذلك فقد كانت أشقى ملكة عرفها التاريخ مظلومة حتى العظم.

كانت تعيسة ولا تعاسة من اجتمعت ضده كل الشياطين. أحب الناس إليها أبوها وزوجها، هما اللذان دفعاها إلى ما سموه « عالم الجنون». من كل أبهة الملك لم تعرف معظم حياتها سوى الثوب الأسود القذر. لم تحكم ملكها يوماً واحداً، وكانت الدنيا تحكم باسمها. من إمبراطوريتها الشاسعة كلها لم تعرف سوى غرف سوداء في حصون مهجورة، ومن عمرها المديد قضت السنوات الثلاثين الأولى طريدة الخوف والظلم والحرمان والغيرة، بينما قضت السنوات السبع والأربعين الأخيرة في السجن المظلم كالقطة الوحشية. هل كانت هذه المرأة ذات

الحكاية الغريبة، مجنونة حقاً؟ أم ضحية قضية من أكبر مآسي الظلم في التاريخ أم هو الانتقام الإلهي؟

دونيا خوانا هذه يجب أن تعرفها أولاً إنها ابنة الملكين فرديناند وإيزابيلا اللذين تزوجا وتحالفا على أخذ غرناطة من آخر ملوك العرب في الأندلس، ثم نقضا العهود التي منحاها لأهل تلك الزمردة الإسلامية، وذبحا المسلمين بالاضطهاد العنيف. ولقد مات أولاد هذين الملكين الأربعة من بنات وبنين في حياة الملكين، وبقيت لهما هذه المجنونة. وخطبت الفتاة صغيرة بدافع الطمع السياسي إلى ابن الإمبراطور الذي كان يحكم النمسا وألبانيا وهولندا، وكان فتى بلغ من جماله أن كسب في التاريخ لقب «فيليب الجميل» وحملت خوانا إليه في بلاده، فأغرمت به الغرام الذي دمرها تدميراً. كان هذا الحب هو جنونها الوحيد نسيت معه حتى الصلاة.

أما فيليب فكان زير النساء الذي لا يريد من هذه الزوجة سوى العرش الذي سوف ترث. كانت موضع إهانته وتحديه الدائم، مع أنها تمثل أمل أسبانيا وتاجها المرتقب. وحين استدعتها أمها إلى أسبانيا وجاء معها زوجها الجميل فيليب، بلغ من إهانته لها أن ضربها وسجنها في أحد أجنحة القصر عدة أيام، فأضربت عن الطعام ولزمت مقعداً لا تفارقه ولا تكلم إنساناً، وبدأت مأساتها الطويلة. قرر الزوج العودة إلى بلاده فقرر الملكان الأبوان منع الابنة من مرافقته. فلما رحل وحده اعتزلت خوانا الدنيا في قلعة يعرفها العرب باسم «قلعة عبد السلام» قرب مدريد، وامتنعت عن الكلام، ولبست السواد، وألزمت الحاشية بلبسه.

وبينما كانت المؤامرات في البلاطات الملكية الأوروبية ما بين فيينا وباريس ومدريد تدور من حول خوانا، كان هم هذه الفتاة الوحيد هو

أن تعلم شيئاً عن الزوج الغائب. أين هو؟ وماذا يفعل؟ وحين أرسل إليها رسالة لتلحق به ورفضت أمها السماح لها بالسفر، حاولت الهرب من الحصن الذي وضعت فيه، فلما منعوها بالقوة بقيت يومين تصيح وتبكي وتلعن وتهز حديد السور المحيط بالحصن حتى انهارت. واستمر عناد خوانا فترة طويلة قبل أن يسمحوا لها بالسفر، لكنها لم تلق قرب ذلك الزوج إلا التعاسة والإهمال. وحين دقت أجراس الكنائس في أسبانيا معلنة وفاة الملكة الأم، كانت خوانا هي الوريثة لأملاك أمها، وكان هم أبيها أن يكون هو الوارث. فلما كتبت في السر وثيقة تفوض أباها أن يحكم باسمها أراضيها، وقعت هذه الوثيقة في يد الزوج، وكان جزاء خوانا التطويق والعزل عن دنيا الناس. ولجأت إلى سلاحها التقليدي: الصمت والإضراب عن الطعام.

وفي رحلة حزينة عاصفة، حملها الزوج إلى أسبانيا ليأخذ العرش الذي ورثت، وهناك دفعتها شدة الحب لزوجها إلى محاولة الانتقام منه. هربت لتعلن في اجتماع يضم نبلاء الإسبان أنها ستحكم البلاد بنفسها، أو قد تنيب أباها، ولكنها ترفض أن يكون زوجها هو النائب في الملك. ولم تتبدد مطامع فيليب الجميل بهذا الإعلان مزقاً مع الريح فقط، ولكنه بسبب إسرافه على نفسه أصيب بطفح شديد مع الحمى. وبالرغم من أن خوانا أسرعت على اللهفة والرعب وأصرت على تمريضه بنفسها، وعلى سهر الليالي عند قدميه إلا أنه مات. كان فقط في التاسعة والعشرين وكانت تصغره بسنتين، فأصاب خوانا مس من الذهول، كيف مات؟ لزمت تابوته، أصرت على دفنه في غرناطة، وغرناطة على بعد ٧٠٠ كيلومتر منها، وأصرت على نقله بنفسها، وشهدت الليالي الأسبانية موكباً غارقاً في السواد، حتى خيله. يسير كلما حل الظلام. فقد أصرت

على أن لا يسير بالنهار من شمال البلاد إلى جنوبها، وكان يرى في هذا الموكب على ضوء المشاعل تابوت وراءه امرأة، وكوكبة من الفرسان السود.

لم تهتم بشيء بعد ذلك. أرغمها أبوها على أن ينوب عنها الحكم ثم أخذ الملك ابنها المعروف في التاريخ باسم الإمبراطور شارلكان أوشارل الخامس، وإذا لم يتردد الأب في سجنها في أحد الحصون فإن الابن أبقى عليها في السجن، وكذلك الحفيد من بعدهما. ٤٧ سنة قضت تنام على الأرض لا تستحم إلا مرغمة ولا تبدل ثيابها السود حتى لو اهترأت. أهي مجنونة؟ أهي عاقلة؟ أهي ضحية سياسية؟ أهي ضحية الحب؟ الله أعلم ! كل ما قد نعلم أنها إحدى كبار المظلومين في التاريخ!.

الرشيد المظلوم

الناس، كل الناس، إذا جاء ذكر هارون الرشيد انداحت أمامهم الصور الذهبية ورقصت الأحلام، شيء من إيقاع الفردوس، من بهجته الضاحكة. نلقيها عليه، وسكب من النور نسفح في الدروب ونطلق الخيال وراء خطرات الجواري على المرمر، وأستار الحرير تهتز على الونا، وهدير الأعواد والليالي التي لا تحن إلى الشمس، والرشيد:

لـه الحب والكأس والمزهر ... وللناس منه الصدى المسكر

هذه الصورة (الألف ليلية) التي عششت في أذهان الناس، وطلت بالذهب عصر الرشيد وقصوره والجواري والمزامير، هل أفاجئك إذا قلت أنها ليست سوى أسطورة وأسطورة كبيرة؟ أبداً، لم يوجد على عرش الخلافة ذلك الرشيد اللاهي، النواسي إلف الجواري والكأس الذهبية ونشوة المجون، بل إن الثلاثي المشهور: بغداد، الرشيد، أبو النواس، إنما هو ثلاثي قصص ليس غير، ابتكرته وربطت بين جوانبه مخيلات القصاصين ذات النزوات والجموح، لقد كان القاعدة التي أقاموا عليها تلك الملحمة القصصية العالمية «ألف ليلة وليلة» وطغت الصورة «الألف ليلية» على الواقع أقسى الطغيان، حتى استطاعت أو كادت أن تمحو الحقيقة، وتخلق التاريخ خلقاً جديداً، فنحن لا ننظر إلى بغداد إلا من خلال أعراس ألف ليلة، ولا إلى الرشيد إلا من خلال البذخ المترف

والليالي الملاح، ولا إلى أبي نواس إلا من خلال الراح والجواري والديارات. فهو أبداً:

سكران والكاسات شاهدة   أن الكؤوس لها من العدد

والواقع أن هذه الأسماء الثلاثة التي تتلازم في خواطرنا لتغطي صورة العصر العباسي وتمنحه مع الزهر المعزف وآلاف هذه الأسماء، لم تكن متلازمة أبداً، فلا بغداد كانت عاصمة الرشيد دوماً، ولا أبو نواس كان نديمه وشاعره الأثير، ولا الرشيد الألف ليلي كان الخليفة الذي عرفه التاريخ.

والرشيد بالذات، هذا الذي قد نغبط ونحسد، كان من التعساء، التعساء في الحياة، ومن المظلومين بهذه الصورة العابثة الشائعة له في الناس، هل أقص عليكم حقيقته التاريخية؟ لعلنا يجب أن نذكر أولاً أن الرشيد وصل الخلافة سنة ١٧٠ هجرية، وهو في الثالثة والعشرين من العمر أو نحوها، وقد شهد خلال السنة التي سبقت خلافته قتل أبيه المهدي، ثم أخيه الهادي، في مؤامرات البلاط، وقد قضى السنوات الثماني الأولى من الخلافة يعتمد على البرامكة، ثم كانت حياته بعض الجحيم لأمرين على الأقل:

الأول: أنه أحس بانحراف البرامكة عنه وتدبيرهم ضده فأقبل يواجه عملاً بعمل وتدبيراً بتدبير كان يقضي الليالي في التفكير والتدبير حتى فتك بهم قبلٍ فتكهم به، وفي سبيل هذا هجر بغداد. نصف خلافته قضاها هارباً من بغداد. حاول إنشاء عاصمة له في الحيرة قرب الكوفة ثم خاف علوية الكوفة فترك الموقع الذي اختار، وانتقل إلى الشمال من بغداد إلى القاطول وبدأ بناء عاصمة أخرى وأقام البنيان وارتفعت جدران

القصور، ثم بدا للرشيد أنه ما يزال هنا تحت رحمة البرامكة، وقيد أميال من مؤامراتهم فترك البناء وانصرف إلى الرقة على الفرات، واتخذها مستقراً له وعاصمته، لا يطرق بعدها بغداد إلا لماماً.

في السنوات الثلاث عشرة الأخيرة من حياته وخلافته ونكبته للبرامكة، لم تكن أبداً بغداد عاصمة له، نكبة البرامكة نفسها لم تكن في بغداد وإنما في الأنبار، بينما كان الرشيد عائداً من الحج في مطالع سنة ١٨٧ في طريقه إلى الرقة، بعد أن كان في ذلك الحج نفسه قد استوثق بولاية العهد لابنيه الأمين والمأمون، بعمل لم يقم به خليفة قبله ولا بعده، هو تعليق العهود في الكعبة وأخذ البيعة لهما على جميع أهل الدولة.

الأمر الثاني: مرض الرشيد، بل مرضه الطويل المزمن، كان هذا الخليفة السعيد الذي تتغنى الليالي باسمه مريضاً بالسرطان، وكان يهرب من علته تارة إلى الغزو وتارة إلى الحج وثالثة إلى التعبد، مائة ركعة يصلي كل يوم، ويتصدق كل صباح بألف درهم ويوزعها بيده أو بأمره منه، وإنما اختار الرقة مستقراً لأنها قريبة من الثغور مع الروم، وقد قضى الثلث الأخير من خلافته بعد أن سحق البرامكة في الجهاد على تلك الجبهة.

وقد حج الرشيد تسع مرات في فترة خلافته، بمعدل حجة كل عامين تقريباً عدا حجاته التي سبقت الخلافة، وأبى في أخر حجة له إلا أن يزحف ماشياً من الرقة إلى مكة على قدميه وقد فعل، كانت تلك الحجة سنة ١٨٨ قبل وفاته بخمس سنوات، وانصرف بعدها للغزو والجهاد.

أكان يا ترى يحاول الشهادة؟ وقد ذكروا أنه اتخذ لنفسه قلنسوة كتب عليها «غاز حاج» وكان من عادته إذا حج، أن يحج معه وعلى نفقته ١٠٠ من الفقراء، وإذا لم يكتب له الحج أرسل إلى عرفات ٣٠٠

رجل بالنفقة الكاملة والكسوة الظاهرة، وقد ختم به الخلفاء الحجاج فما من خليفة حج من بعده أبداً، وقد قال فيه الشاعر المعاصر لـه أبـو المعالي الكلابي عن حق:

«فمن يطلب لقاءك أو يرده ... ففي الحرمين أو أعلى الثغور»

والمؤرخون المتصلون بعصره سجلوا أنه كان يقسم ليالي أسبوعه، فليلة للوزراء ورجال الدولة يذاكرهم أمور الناس ويشاورهم في المهم منها، وليلة للكتاب يجمع رؤساءهم ويحاسبهم عما لزم من أمور المسلمين ويرتب لهم ما ظهر من صلاح أمورهم، وليلة للقواد وأمراء الأجناد يذاكرهم في شؤون الأمصار ويوقفهم على ما تبين من صلاح القوة وسد الثغور، وليلة للعلماء والفقهاء، وليلة للقراء والعباد، وليلة يخلو فيها بنفسه لا يعلم أحد، قرب أو بعد، ما يصنع، ولا يشك أحد أنها خلوة عبادة واستغفار هذا ما قالوه عنه.

ضمن هذا الإطار إذن، أين عالم اللذة واللهو وضحكات الجواري وعربدة الندماء؟ ألم يكن الرجل يلهو، يسمع الشعر والغناء ويسامر الندماء؟ لعلنا يجب أن نعرف أولاً أن الرشيد كان يقول الشعر، وأنه أكثر من هذا، كان ذواقة للشعر، يطرب له ويستحسن ويجيز ويضرب الأرض بمخصرته ولا يرفض سماعه في أي مكان، لكن مجالس الرشيد لم تكن حكراً على أبي نواس، لقد كانت تجمع زعماء القافية الثلاثة في عصره، أبا العتاهية ومسلمة بن الوليد «صريع الغواني» ومروان بن أبي حفصة، ولقد جاهد أبو نواس طويلاً ليكون رابع الثلاثة وكان يحضر تلك المجالس العباسي بن الأحنف شاعر الغزل والعتابي كلثوم بن عمر وأشجع السلمي ومنصور النمري وغيرهم، وأما من الأدباء فكانت

مفتوحة للأصمعي وكان أعذب من تحدث وحكى، والكسائي وابن يوسف القاضي وأبي البختري، وفيها من أهل الدعابة والظرف ابن أبي مريم المدني وأبو الحسن الدمشقي الملقب بالخليع وابن أبي المغازلي. أما نديم الرشيد الدائم فهو عم أبيه العباس بن محمد الهاشمي، فأين النواسي ضمن هذا الجمع؟

ولعلنا يجب أن نعرف ثانياً أن الرشيد كان طروباً يتعشق هو وإخوته السماع والطرب، وأخوه إبراهيم بن المهدي من كبار المغنين المشهورين، وأخته عليه بنت المهدي تحفظ الكتب أخبارها في الغناء وفي العلم بالأصوات، والرشيد نفسه كان كذلك. مغنيه ابن الموصلي قال لمغنيه الآخر ابن جامع ذات مرة: والله ما أعلم أحداً بقي على الأرض يعرف هذا الغناء معرف أمير المؤمنين الرشيد، فقال ابن جامع: حق له والله، إنسان يسمع الغناء منذ ٢٠ سنة مع هذا الذكاء الذي فيه.

ولعلنا أخيراً، يجب أن نعرف أن امتلاك الجواري في ذلك العصر كان برهان الثروة لا دليل المجون فهن مدبرات القصر والخادمات والمربيات والطابخات والعازفات والمغنيات، ونعرف أيضاً أن الرشيد كان في مجالس أنسه يضرب بينه وبين الخدم والمغنين بستر يحجبه لحضور المجلس طبقات ورسوم، وللكلام والسمر قواعد وحرمات، حتى قال الجاحظ: من أخبرك أنه رآه قط يشرب إلا الماء فكذبه.

ترى أين الرشيد الأسطورة «الألف ليلي» من هذا الرشيد الذي تراه؟ أليس الرشيد بمظلوم؟

جحا

كالخبز نقضم كلنا اسمه. بالابتسام المرح نردد نوادره، تراثاً من التراث الشعبي أصبحت شخصيته. هل ثمة من لم يسمع بجحا؟ من لم يرو نادرة من نوادره؟ إنه الاسم الذي تنداح الابتسامة عند ذكره انداياح الدوائر في الماء، جحا رجل النكتة والابتسام، هل هو حقاً ذلك الساذج الأحمق الذي نصور، والذي نحمل عليه كل السذاجة أو نلقي عليه كل حماقة نعرفها؟ هذه الصورة هل كانت بالفعل صورته؟

لقد صار من كثرة الأصباغ والألوان التي ألقيت عليه أشبه بمهرج السيرك، ذي الأنف الأحمر، والوجه المموه بالصباغ، والشعر المستعار، بل صار رمزاً، أسطورة يغتلي فيها ارتياب الناس. حتى لقد فقد عندهم قوامه المادي التاريخي، فهو مجرد شخصية من الوهم: جحا المغفل، جحا الهزل والحمق هذا الجحا أليس بمظلوم؟

من هو أولاً هذا الرجل؟ الأصح أن نقول من هما الرجلان؟ بلى، ثمة في التاريخ اثنان يحملان اسم جحا. والاثنان رجلان تاريخيان حقيقيان. والاثنان عرفا بالنكتة الساخرة، تلسع الحقيقة لسعاً. والاثنان تحولا إلى رمز، إلى أسطورة، ضاع معها الواقع فهما يقضيان مسيرتهما التاريخية مظلومين،مظلومين.

أول الجحوين عربي، من قبيلة فزارة العربية، اسمه «دجين بن ثابت اليربوعي البصري». ولد في أواخر عهد معاوية بن أبي سفيان، وقضى الجانب الأخير من حياته في الكوفة. وكان يكنى بأبي الغصن، وقد عمر فوق المائة وتوفي سنة ١٦٠ هجرية، ولم يكن الرجل من الحمقى ولا النكرات، ولكنه أحد التابعين والفقهاء، ومن رواة الحديث فقد رأى أنس ابن مالك وكانت أمه خادماً له، وروى عنه أسلم مولى عمر بن الخطاب وهشام بن عروة، وروى عنه مسلم وابن مبارك والأصمعي الذي نعرف. ويذكرون أن ما يقال فيه مكذوب عليه، ولكن كان له جيران مخنثون يمازحونه ويتزيدون عليه، وهم الذين أذاعوا النوادر عنه بين الناس وأذاعوا لقبه «جحا، جحا، جحا»!

وتذكر المصادر التراثية أنه كان كيّساً ظريفاً على جانب حسن من صفاء السريرة والسماحة ومن الفطنة والذكاء والعلم، ولكنه، على ما يبدو، كان يتحامق أحياناً عن عمد، يقتطف النادرة ليثير الضحك. يقبل أن يتعابث معه الآخرون ليصفعهم بالنكتة. وبلغ من شهرة هذا العبث الذي يتندر به الناس أن عمر بن أبي ربيعة الشاعر الماجن أستغله في بعض غزله، قال لحبيبته:

دلهت قلبي وتلعبت بي حتى كأني من جنوني جحا

وسرت النوادر على ألسنة الناس حتى دخلت كتب الأدب. كانت أفلامهم الفكاهية، رواها الجاحظ ورواها الميداني صاحب الأمثال، وأشار إليها الجوهري في «معجم الصحاح» وجمعها بعضهم في تلك الفترة القديمة نفسها في كتاب «نوادر» ذكره ابن النديم في الفهرست بين كتب النوادر والمغفلين.

وثاني الجحوين تركي وعلى وجه الدقة سلجوقي رومي. وسلاجقة الروم نعرفهم ونعرف أنهم كانوا من الترك الذين نزلوا في بلاد الروم. اسم جحا التركي هذا «نصر الدين خوجة» وقد ولد في بعض قرى الأناضول في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي. وقد كان أبوه إمام جامع القرية التي ولد فيها فسلك مسلكه، ثم خلفه في الإمامة قبل أن ينتقل، وعمره ثلاثون سنة إلى مدينة أقشهر، فيستقر فيها قرابة خمسين سنة، يعمل في القضاء والتدريس حتى توفي، فقبره فيها موجود إلى اليوم، تحت قبة تقوم على أربعة أعمدة، وعلى الضريح قاووق عظيم، وعلى الشبابيك نذور وخرق تلتمس كرامات الشيخ وبركاته، ويذكرون عنه أنه ساح في بلاد الأناضول واعظاً مرشداً، وعرف بالصلاح والزهد من جهة، وبالجرأة على الحكام والأمراء والقضاة من جهة أخرى، وكانت داره محط الواردين من أهل القرى والغرباء، وقد انقذت وساطته بلدة سيوريحصار من التخريب والنهب حين حاصرها تيمورلنك الطاغية الأعرج.

نصر الدين خوجة التركي أخذ عن زميله السابق العربي لقبه: «جحا» واشتهر به، فهو «جحا الترك»، وهو جحا الثاني مجدد نوادر الأول، ولكنه بجانب نوادره ولي من أولياء الله الصالحين، ومن أقطاب أصحاب الطرق الصوفية وأهل الكرامات. هذان هما الجحاوان في التاريخ: تابعي عالم صافي السريرة، وقاض إمام صار من الأولياء المباركين. أو هذا هو جحا في التاريخ؟ والحقيقة، فماذا أضحى لدى الناس؟ أضحى الأحمق الذي يقطع العصور ومن ورائه حمار أذكى منه؟ ومن حوله جوقة الصبيان يفضح ظلم الحكام ورياء الناس وما يمكرون؟

ولكن بمنطق المغفل وسذاجة الأطفال. ألست ترى معي، أن جحا مظلوم؟ أو لسنا نظلمه في كل مرة نروي بها إحدى نوادر جحا؟.

الأمين المفترى عليه

في قصص الحصار الذي ضربه جيش المأمون بن الرشيد على أخيه الخليفة الأمين ببغداد يوم تحاربا على الخلافة، ثمة قصة تروى: كانت بغداد كلها قائمة على قدم تدافع الجيش المحاصر الذي انتشر في الأرياض حول العاصمة. وكان بين المدافعين رجل يقال له «السمرقندي»، كان يرمي عن مناجيق نصبت في السفن من باطن دجلة، ولم يكن حجره يخطئ فكلما اشتد أمر المحاصرين بعثوا إليه، فأخذت حجارته تغني في الأجواء وتفتك بالمهاجمين، والناس يصفقون له ويحيونه ويدعون له، ثم هزم المدافعون وسقطت بغداد وقتل الأمين وأحرقت المناجيق التي كانت على دجلة فأشفق السمرقندي على نفسه، وتكارى بغلاً وخرج هارباً، ولكنه لم يبعد حتى قبض عليه وسيق إلى شاطئ دجلة، حيث كان يضرب المناجيق ليصلب حياً. واجتمع خلق كثير فجعل يقول قبل أن يشدوه: «أنتم بالأمس تقولون لي لا قطع الله يا سمرقندي يدك واليوم قد هيأتم حجارتكم ونشابكم لترموني»، ولكن الخشبة رفعت به والحجارة والنشاب نزلا عليه، والرماح تناولته، ثم ألقوا تحته القصب والحطب وجعلوه طعمة للنار، أليس كذلك يفعل الناس بمن يعثر به الحظ؟ أليس كذلك فعل الناس والمؤرخون بصاحب القضية التي دافع عنها

السمرقندي؟ ألم يزيدوا اللآلئ في إكليل المأمون الظافر ويذبحوا بالتهم والأساطير الأمين؟ ألم يرموه بالحجارة والنشاب ويحرقوه في التاريخ؟

تشجيك قصة الأمين لو عرفت قصة الأمين. الظلم الذي عضه لم يكن ظلماً واحداً ولكنه ظلم ثان وثالث. ظلم، بأنه، وهو الخليفة الوحيد الهاشمي، أباً وأماً بين جميع الخلفاء العباسيين السبعة والثلاثين، لم يمتع بالخلافة سوى أربع سنوات ونيف قضى ثلاثاً منها في الحرب الأهلية وغصص الاضطراب والقلق، وظلم ثانية بأنه قتل وهو في الثامنة والعشرين فقط من الشباب الجميل، وعلق رأسه على باب بغداد ثم نقل إلى خراسان ليقدم على ترس الفولاذ لأخيه المأمون.

وظلم ثالثة، وهو أبشع الظلم في صورته التي تركت للتاريخ. وماذا أروى من هذه الصورة الخرقاء؟

يذكرون أن أنه زبيدة وهي حامل به رأت فيما يرى النائم أربعة من الملائكة يحفون بسريرها وسرير ابنها وهو طفل، يقول أولهم: ملك قصير العمر، ضيق الصدر، عظيم الكبر، واهي الأمر، كثير الوزر، شديد الغدر. ويقول الثاني: ملك قصاف، مبذر متلاف، قليل الإنصاف، كثير الإتلاف، ويقول الثالث: ملك ضخم، قليل الحلم كثير الأزم، قطوع للرحم، ويقول الرابع: ملك غدار كثير العثار، سريع الدمار. ألست ترى الاصطناع والزيف في السجع المنمق كسجع الكهان؟ ويذكرون أن أباه الرشيد حين أراد إعطاءه ولاية العهد، تردد وأنه أشرك معه أخاه المأمون سنة ١٨٣ قائلاً: إني أرضى سيرته، وأحمد طريقته، واثق بحسن سياسته، وإني لا تعرف فيه حزم المنصور ونسك المهدي، وعزة نفس الهادي، أما الأمين فقال عنه فيما يقولون، إني لا أخاف تخليطه على الرعية، ففيه ما فيه من الانقياد لهواه، والتبذير لما حوت يداه، ومشاركته النساء والإماء

في رأيه. كل ذلك يزعمون أن الرشيد قاله في الولدين ولم يكن عمرهما يجاوز اثنتي عشرة سنة. ويذكرون أنه بعث ليلة تولي الخلافة في طلب الملهين من كل ناحية، وأنه في اليوم التالي لبيعته أمر ببناء ميدان حول قصر الخلافة للصوالجة واللعب، وأنه أمر فبنيت له خمس حراقات في دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس، وانفق في عملها مالاً عظيماً، وأنه اقتنى سفينة عظيمة أنفق فيها ثلاثة ملايين درهم، واتخذ أخرى على خلقة شيء في البحر يقال له الدلفين، هذه الأعمال يوم أقيمت كانت فتنة بغداد، كانت من عجائبها، والمباهج التي تتوج ألق الخلافة وعصرها الذهبي الذي بلغت، فلما انهار الأمين صارت من نقائصه وسرفه وأي سرف في هذا؟ وقد ترك له الرشيد تسعمائة مليون درهم في الخزانة، وكان خراج دولته قرابة ستمائة مليون كل سنة. ويذكرون أنه كان على اللهو الأبله والمجون النواسي.

قالوا: إنه كان يصطاد السمك وبغداد محاصرة بجيوش أخيه، وجاء من يخبره أن المدينة استسلمت فأجاب: «ويلك، دعني فإن كوثر الخادم قد اصطاد سمكتين وما اصطدت غير واحدة».. ويقولون أنه أقام معركة من أجل خادم تركي جميل، وأنه قاد بنفسه في ليلة أنس جوقة من ١٠٠ جارية تغني، وأنه كان يقضي الليالي بدل التدبير، في الشراب ومنادمة أبي نواس، ولا يرون تناقضاً بين هذا الذي يروي وبين الخطب التي خطب، والجيوش التي عقد لها الألوية، والتدابير التي اتخذ، ولا يرون بخاصة أنه هو الذي سجن أبا نواس مرات في الخمر، وطال سجنه له وإبعاده بسبب الكأس والقمار. ويذكرون أن الأمين غدر بأخيه، نكث العهد الذي عاهده عليه وعاهد أباه، حاول نقل ولاية العهد لابنه بدل أخيه.. وينسون أن تلك كانت سنة جميع الخلفاء، وهذا هو ما فعله من قبله جده

المنصور وجده المهدي وأبوه نفسه، كلهم حين تمكنوا من الخلافة، أزاحوا ولي العهد الذي كان يليهم، وحولوا الأمر لأولادهم، ينسون أن المهدي والهادي كلاهما قتل في هذا الأمر نفسه، ولكن أعمال سابقيه نجحت فأصبحت مشروعة مقبولة، وفشل الأمين فانصبت على رأسه الأقدار، وينسون فوق هذا وذاك أن الأمين ظل حتى اللحظة الأخيرة عطوفاً على أخيه المأمون، وكان للمأمون في بغداد ولدان وزوجة فما مسهما أحد بسوء، ورفض الأمين أن يجعل منهما رهائن حتى قتل فانصرفوا إلى المأمون في خراسان. ويذكرون أخيراً أنه كان فاسد السياسة، سيئ السمعة، كريها إلى الناس، والسؤال المحير هنا: كيف وقفت بغداد ١٥ شهراً تدافع عن الفاسد السيئ، الكريه؟ ومن ذا الذي وقف يدافع؟ وقف العامة، وقف بسطاء الناس والمساكين. مائة ألف منهم جعلوا من صدورهم أسواراً له ترد المناجيق والفرسان والعدو، كانوا عراة يحملون مخالي الحجارة والآجر والمقاليع للضرب، ويضعون الخوذ على الرؤوس، ولكن من الخوص، ويحملون الدرق والتروس ولكن من الحصر والخرق، والبواري، ولهم رماح ولكن من القصب، والأعلام ولكن من الخرق والبوقات ولكن من قرون البقر... ومع ذلك فقد نظموا أنفسهم، فلكل عشرة عريف، ولكل مائة نقيب، ولكل ألف قائد، ولكل عشرة آلاف أمير.

شاعر رأى هذا كله فقال في ذلك الوقت:

خرجت هذه الحروب رجالاً	لا لقحطان لا ولا لنزار
معشر في جواشن الصوف يغدون	إلى الحرب كالأسود الضواري
وعليهم مغافر الخوص تجزيهم	عن البيض والتراس البواري
ليس يدرون ما الفرار إذا	الأبطال عادوا من القنا بالفرار

«واحد منهم يشد على الألفين، عريان ماله من أزار
ويقول الفتى إذا طعن الطعنة خذها من الفتى العيار

خمسة عشر شهراً أوقف هؤلاء جيوش المأمون أمام بغداد فهل كانوا يدافعون عن الأبله الماجن السكير الفاسد؟ وحين قتل الأمين قالت عمته في رثائه:

«أبكيك لا للنعيم والأنس بل للمعالي والرمح والترس»

وقال الحسين بن الضحاك:

«يا خير أسرته وأن زعموا أني عليك لمثبت أسف
هتكوا بحرمتك التي هتكت حرم الرسول ودونها السجف»

وقال:

«سنندب بعدك الدنيا جهاراً ونندب بعدك الدين المصونا»

فهل كان هذا الرثاء إلا أقذع الهجاء لو أن الأمين كان ذلك الخليفة الأبله الماجن المستهتر الذي يصورون؟ ولكنها البقرة متى وقعت كثرت فيها السكاكين، وهي أيضاً الدعاية المأمونية التي شاءت أن تبرر وتغطي قتل الأخ أخاه في الخلافة، قتل قابيل لهابيل، قابيل ماذا فعلت بأخيك؟

خليفة لم يسجله التاريخ

هل سمعت بالخليفة عبد الله بن الزبير؟ أنت وأنا قد نعرف أسمه بعض المعرفة أو جيد المعرفة أنه الصحابي ابن الصحابي والصحابية. أبوه الزبير بن العوام، وأمه هي ذات النطاقين أسماء بنت الصديق أبي بكر، وكان أول ولد يولد للمهاجرين بعد الهجرة إلى يثرب، ومع ذلك، فانظر في قوائم خلفاء الإسلام هل تجد له من ذكر أو اسم؟ الصورة التي تجدها له في الكتب هي الصورة الأخيرة، التي التقطت له وهو جثة شائهة على خشب الصلب قرب الكعبة، وجند الحجاج بن يوسف الثقفي ترعب الأرض في أم القرى، وتمر به أمه أسماء، وهي تجاوز التسعين، فتنظر إلى الخشبة وتقول: «أما آن لهذا الفارس أن يترجل؟» ويرجلونه ويقبرونه وتقبر معه قصة خلافته التي دامت حوالي اثنتي عشرة سنة.

فلا تذكره التواريخ إلا على أنه بعض الثائرين، وينظم المؤرخين خلفاء العهد الأموي، أموياً بعد أموي منذ معاوية حتى مروان الأخير ولا مكان لهذا الذي بايعته كل الأقطار الإسلامية حتى الشام بين الخلفاء، فما قصة الرجل؟ ما قصة هذا الخليفة المنكور الخلافة؟

قصة ابن الزبير مع الخلافة تبدأ في أواخر عهد معاوية. كان يمشي إلى الستين وهو أحد ثلاثة كانوا وجوه الناس في الحجاز: الحسين بن علي وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير. وبعث الخليفة الأموي يدعوهم،

يدعوا هؤلاء لمبايعة ابنة يزيد، الشاب في ولاية العهد، فبايع الناس إلا هؤلاء الثلاثة. توفي معاوية وهو يعلم ذلك. توفي وهو يقول لابنه: «لست أخاف عليك من قريش إلا هؤلاء الثلاثة. فأما الذي يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإذا أمكنته فرصة وثب، فذاك ابن الزبير» وحفظ يزيد الوصية الأبوية، ما إن سلموا عليه بالشام بالخلافة سنة ٦٠ للهجرة، حتى بعث إلى عامله على المدينة أن يأخذ الثلاثة بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة، ففشل العامل في المهمة. فشل على الأقل في أخذ بيعة الحسين وابن الزبير. لقد تحرك الاثنان إلى مكة والكعبة فليس إليهما سبيل، وحين خرج الحسين إلى العراق ثائراً وصرع في كربلاء سنة ٦١، أدرك ابن الزبير أنه أضحى المرشح الأوحد للخلافة، وشهدته بطاح مكة وأركان الكعبة يعظم مقتل ابن بنت رسول الله، ويعيب على أهل الكوفة والعراق خذلانه، ويعتبر نفسه المطالب بدمه، وقال له الناس: «أيها الرجل، أظهر بيعتك فإنه لم يبق أحد ينازعك هذا الأمر». ولكنه كان من الحذر بحيث أظهر أنه عائذ ببيت الله الحرام، وفي ظل البيت العتيق كان يتقبل بالفعل بيعة الناس في السر، ويتلقى الوفود، ويخطط أركان دولته المقبلة.

وتروي الروايات أن الخليفة عرف فأقسم أن يقيده في السلاسل، ثم أراد تخفيف الأمر فأرسل إليه سلسلة من فضة ليأتي إليه بها. فأسمع ابن الزبير رسل يزيد من قوارص الكلم ما شاع في مكة والمدينة، وجعل الرجل يصبح موضع الإعجاب والأمل، وأرسل إليه يزيد بجيش يقوده أخوه عمر بن الزبير، فهزم عمر وذاق مرّ العذاب على يدي أخيه، ورمي في بعض السجون، وصارت بيعة الناس لعبد الله بالخلافة بيعة علنية، صار خليفة الحجاز، وأراد يزيد أن يحسم أمر الحجاز مرة واحدة فأرسل

عليه جيشاً ضخماً من اثني عشر ألف رجل، أخذوا عطاءهم كاملاً ومع كل عطاء ١٠٠ دينار، فكانت «واقعة الحرة» التي هزم فيها أهل المدينة أولاً، ثم أقبل الجيش على مكة فحاصرها على ابن الزبير شهرين وبعض الشهر. وفجأة وردت الأنباء بوفاة الخليفة يزيد، فأضحى عبد الله بن الزبير الاسم الأبرز والأحد للخلافة. حتى قائد الجيش الأموي أقبل يفاوضه أن يبايعه على أن يخرج معه إلى الشام، فرفض الخروج. وبينما كان الأمويون في الشام في «حيص بيص» لا يدرون ما يفعلون، لا سيما بعد أن تنازل معاوية الثاني ثم توفي عن الخلافة واصطدم بعضهم ببعض، كان ابن الزبير يتقبل البيعة من أهل مصر وأهل العراق والجزيرة العربية ومعظم قرى الشام نفسها، ويرسل ولاته إلى المدينة والأمصار، ويعطي أخاه مصعب بن الزبير ولاية العراق، وهكذا كان ابن الزبير الخليفة الثامن من خلفاء الإسلام.

الأحداث التي جرت بعد ذلك كانت محاولة من بني أمية لاسترداد الخلافة التي ضاعت منهم. دامت هذه المحاولة تسع سنوات ثقال، غيروا خلالها البيت الحاكم من آل أبي سفيان إلى آل مروان بن الحكم، وقاتلوا في الشام والعراق عدداً من الثورات والثائرين، وخسر ابن الزبير في المعارك مصر، ثم خسر العراق بعد مقتل أخيه مصعب، وتفرغ عبد الملك ابن مروان في النهاية لعبد الله بن الزبير في مكة، فأرسل عليه الحجاج بن يوسف الثقفي الذي رمى حتى أركان الكعبة بالمجانيق ليخرج منها ابن الزبير، وحين ندرت الأغذية في مكة بدأت المجاعة، وبدأ أنصار ابن الزبير يتسللون هرباً حتى لم يبق من حوله إلا بعض أصحابه، ذهب إلى أمه العمياء «أماه لقد خذلني الناس، حتى ولداي فماذا أصنع؟» قالت: «يابني

إن كنت قاتلت لغير الله فقد هلكت وأهلكت، وإن كان لله فلا تسلم نفسك».

كان يومذاك في الثالثة والسبعين من العمر وخرج للقتال اليائس، عليه لباس الحديد، ولم يعرفه جند الحجاج حين أصيب حتى صاحت جارية من جواريه «وآه، أمير المؤمنين»! فعرفوه. فأما رأسه فطافوا به في مصر وأما الأشلاء فنصبت مصلوبة. لقد خسر المعركة بلى، ولكن أليس من الظلم في التاريخ أن يحذف أسم هذا الخليفة من قوائم الخلفاء، وقد نودي بالخلافة وبأمره المؤمنين حوالي اثنتي عشرة سنة؟

المعتمد الملك السجين

الذين يعانون الأدب العربي يعرفون قصة «يوم الطين» وصاحب «يوم الطين» المعتمد بن عباد، ملك إشبيلية في جنوبي الأندلس خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، إنه أحد ملوك الطوائف الذين تقاسمت أسرهم حكم الأندلس مدينة مدينة، وكانت إشبيلية من حظ بني عباد، استقل بها جده، ثم أبوه، ولكن المعتمد يكاد يكون الأشهر فيهم وفي ملوك الطوائف جميعاً، يكاد يكون أكثر الأجراس رنيناً وأصداء في التاريخ، إنه لم يكن ملكاً فقط، ولكنه كان قائداً أيضاً، فهو أحد أبطال معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هجرية التي انتصر فيها العرب على الفرنجة بعد طول تخاذل وهزيمة، وكان المعتمد، إلى هذا وذاك وفوق هذا وذاك، شاعراً من أدق وأرق رجال القوافي، قالوا كان يمثل الشعر من ثلاثة وجوه:

أولها، أنه كان يقول شعراً يثير الإعجاب وترويه الرواة والمغنون.

والثاني، إنه كان يرعى شعراء الأندلس أجمعين بل شعراء الغرب الإسلامي كله. فإلى بلاطه لجأ شعراء صقلية وأفريقية حين غزا النورماند بلادهم، واستولوا على بعضها وهددوا الباقي.

الثالث، إن حياة المعتمد نفسها، كانت شعراً حياً، مأساة شعرية كاملة.

وقصة «يوم الطين» تتعلق بجاريته التي طافت حولها حياته، اعتماد الرميكية، كانت لدى تاجر من مياسير إشبيلية يسمى رميك ولقيها المعتمد في إحدى نزهاته، مع صديقه الشاعر ابن عمار وأعجب بها، إذ أجازت على البديهة شطر بيت أعجزه كما اعجز ابن عمار إتمامه، قال المعتمد وهو ينظر إلى قطرات النسيم على الماء أمامه:

«نسج الريح على الماء زرد»

ثم ارتج عليه وعلى صاحبه فلم يفتح عليه بالشطر الثاني فانبرت اعتماد تقول:

«يا له درعاً منيعاً لو جمد»

وصفق المعتمد واشترى الرميكية من صاحبها وتزوجها، ومنذ ذلك الوقت أضحت سيدة بلاطه وقلبه معاً، تسرف في دلالها ونزواتها، فلا يحرمها المعتمد سرفاً ولا نزوة، طلبت إليه أن يريها الثلج، فزرع لها أشجار اللوز على جبل قرطبة، حتى إذا نور زهره حالت الأشجار موجاً من الثلج الأبيض، ورأت الرميكية ذات يوم بعض البنائين يغربلون التراب ويغوصون في الطين بأقدامهم ويصوغون اللبن، فاشتهت على المعتمد أن تخوض في الطين وتفعل ما يفعلون، وحار الرجل،ليس الطين من مقام قدميها ولكنه أمر فسحقت أشياء من الطيب والكافور وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين، وخاضت الرميكية فيما تشتهي مع الجواري في عرس الطين والطيب.

على أن المعتمد لم يكن الشعر والرميكية فحسب، ولكنه كان رجل الدولة الأبرز بين ملوك الأندلس في عصره. لقد حاول أن يوحد جنوب الأندلس كله، أخذ قرطبة، وغلب على أصحاب ملك غرناطة وطليوس والمرية ورندة ومالقة العريقة، كانت تلف الحصون سنابك خيله كانت تخوض العواصف. سفراؤه والوفود كانت تملأ الدروب بينه وبين الأمراء الآخرين، بل كان أحياناً يتحالف مع الفرنجة ويدفع لهم المال ويستعديهم على زملائه الأمراء الآخرين، وفجأة ظهر في الأفق الشمالي ضده الخطر الكبير، الأذفونش ملك قشتالة، هذا الملك بعد أن فرض أجهزته والنفوذ والعنفوان على عدد من ملوك الطوائف استطاع أن يحتل طليطلة، أحصن مدن الإسلام في الشمال، كان الملك يخاف الأذفونش من قبل، بلى، أما الآن فإنه يرى فيه غول المصير، الخطوة المقبلة للأذفونش هي دون شك هي هذه الإمارات الأندلسية المتناحرة في الجنوب ومنها، مملكة المعتمد، ضربة طليطلة كانت الضربة التي أنهت ونبهت في الوقت نفسه هذه الممالك الفسيفسائية إلى مصيرها الفاجع المقبل وأيقظت فيها الضمير، جموع الأندلسيين، الشعب العادي، البسطاء والعلماء، كانوا أكثر وعياً من الزعماء يومذاك كانوا منذ زمن يتطلعون إلى القوة النابتة في المغرب والتي كانت تسمى «دولة الموحدين». كانوا يتمنون لو أن تلك القوة الإسلامية الجديدة عبرت البحر إلى الأندلس وتحت ألويتها أميرها يوسف ابن تاشفين، فكنس هذه الممالك التافهة، كان الأمل في تقواه وجهاده وجيشه وإدارته، وكانت الوفود والعلماء تذهب إلى بلاطه مستصرخة باكية. وحين سقطت طليطلة طرقت هذه التمنيات ضمائر الملوك الممزقين، وجمع المعتمد بن عباد في قرطبة زعماء الناس والفقهاء واستفتاهم في استدعاء ابن تاشفين لدفع الكارثة الفرنجية المقبلة، ولما

أبدى بعضهم التخوف من أن يطمع هـذا الرجـل بـالبلاد أجـاب المعتمـد بكلمة كانت كأنها رؤية من وراء الغيب بمصيره، قال:«رعي الجمال خير من رعي الخنازير، لأن أكون أسيراً عند ابن تاشـفين خـير مـن أن أكـون أسيراً للانفونش»، واستجاب ابن تاشفين للدعـوة واجتـاز البحـر بألويتـه والفرسان وكان من نتيجـة هـذا الزحـف حلـف إسـلامي حقـق معركـة الزلاقة، معركة المعارك الأندلسية، خاضها المعتمد في بـلاء لم يعهـد مثلـه لأحد، أثخنتـه الجراحـات وضـرب علـى رأسـه ضربـة، خلعـت مغفرتـه ووصلت صدغيه وجرحت يمناه وطعن في جنبه وعثرت تحته ثلاثة أفـراس وانجلت الألوية والأشلاء عن النصر الإسلامي العظيم.

بعد سنتين ذهب المعتمد بنفسه مرة أخرى إلى ابن تاشفين في المغـرب يستنجده. في المـرة الثالثـة دارت جيـوش ابـن تاشـفين بـالمعتمد نفسـه، حاصرته في إشبيلية، عاصمة ملكه. وأخذته مع أولاده وأهلـه إلى المنفـى. والمنفى كان في أرمات البليدة المنسية بجوار مراكش.

أربع سنوات قضى المعتمد هناك قبل أن يموت فقراً وغمـاً، تخلـى عنـه الجميع هناك حتى المؤرخون أفاضوا في قصص خمرياته والشعر والرميكية، وما ورطته به من الخلاعة والاستهتار، والمجـاهرة حتـى طغـى ذلـك علـى أخبار جهاده والمروءة والسياسة الحكيمة حتى الرميكيـة نفسـها هنـاك في المنفى قـالت لـه ذات يـوم «مـا رأيـت منـك يومـاً حسـناً» فقـال الملـك المنكوب «حتى ولا يوم الطين»!!.

يتهمونه وهو البريء

قال صاحبي وهو يرفع يده مقاطعاً ومكرراً الكلمات كأنما حبل الحديث وصل لحظة الانقطاع: لا، لا، لا يمكن أن تقول لي أيضاً أن ميكافيللي مظلوم! لا يمكن أن تسلك هذا الاسم بين المظلومين في التاريخ. أمن السهل الدفاع عن إبليس.. عن أجير الشيطان. الرجل الذي قلب اسم القيم رأساً على عقب، جعل عاليه سافله، أقام الكذب والغدر والرياء في قمة الفضائل، لا يمكن إلا أن يكون مستحقاً سمعته الشيطانية. كالغراب، كالإنجيل الأسود يلوب كتاب «الأمير» في ذاكرة الناس. الرذائل؟ بلى وجدت منذ وجد الإنسان، ربما كان كل منا في أعماقه ميكافيلليا حتى العظم. ربما، لكنه يستشعر في ذلك على الأقل الخجل حتى لو واجه نفسه، ميكافيللي وجد الجرأة لمدح الرذائل، نظَّرها، جعلها من المبادئ المقبولة الفاضلة والمقررة. وأي الخدمات قدم لإبليس اللعين في ذلك؟ ثلاثة أرباع الجماجم النابحة في القبور إنما هي ضحية الرذائل الميكافيللية ضحية المبدأ الميكافيللي المشهور «الغاية تبرر الواسطة» أشياء كثيرة غير هذه قال صاحبي، وانتظرت، انتظرت حتى هدأ سيل اللعنات يصبها على الرجل. خيل إلي أننا في محاكمة لمجرم، وأن صاحبي هو النيابة العامة التي تطالب برأسه، برأسه الطائحة في التراب منذ ٥٠٠ سنة، قلت لصاحبي: ما رأيك في أن أزيدك تحطيماً للرجل، في أن أسهم أيضاً فيه

بسكين؟ الميكافيللية تجمع من المعاني ما تحمله كلمة الشيطان في مفيستو رواية فاوست.

حتى الشيطان نفسه يعطونه في الغرب لقب «نك العجوز» لأن نيقولا هو اسم ميكافيللي. شهرة الرجل بالخداع والنفاق جعلته مثلاً في القصص. جميع مسرحيات الكتّاب الكلاسيكيين الكبار كررت اسمه. كرست إبليسيته، وأصباغ الثعالب على وجهه. شكسبير في روايته «زوجات ويندسور المرحات» يضع على لسان إحدى شخصياته قوله: ماذا؟ أنا مخادع؟ أنا ميكافيللي؟!

ومارتسون في روايته «بيغماليون» يكتب وكان أحد الميكافيلليين الملعونين يحمل المصباح للشيطان فترة من الزمن، أما كتاب ميكافيللي الأساسي «الأمير»فقد وضع على قائمة الكتب المحرمة منذ سنة ١٥٥٩. حتى محاكم التفتيش، أم الإرهاب الدموي، قررت إحراق جميع كتبه، لقد ظل اسم ميكافيللي المشجب، الذي يعلق عليه الأدباء والسياسيون والمفكرون والعامة كل المثالب عدة قرون، كل المحاولات لتحسين سمعته كانت تصطدم بما أورده في كتابه الأسود من آراء مباشرة المعاني، صريحة، قاسية الصراحة، أشبه باللكمة التي يتلقاها الإنسان على الأذن. ومع كل ذلك يبقى سؤالان في الرجل وفي الكتاب: الأول، هل كان الرجل يمثل في حياته، في عمله، والسلوك، تلك المبادئ التي صورها؟ ميكافيللي أولاً أحد رجال إمارة فلورنسا في إيطالية، في ذلك العصر الذي اكتشفت فيه أميركا، والذي عرف في إيطالية بعصر النهضة الذهبية كما يسمى أيضاً بـ «عصر التقاة» وكان ميكافيللي مع أسرته من أعداء الحكم الاستبدادي الذي تمارسه أسرة ميدتشي الحاكمة. كان من غلاة الدعاة للجمهورية ولحرية الشعب، وقد أتيحت له الفرصة للحكم بعد

إحدى الثورات فاختير سكرتيراً للمستشارية الثانية في جمهورية فلورنسا، يشرف على شؤونها الخارجية والعسكرية. ذهب في أربع وعشرين بعثة دبلوماسية، ثم كان من حراس الحرية والسلام العشرة للدفاع عن الحرية في الجمهورية الناشئة، وقضى في عمله السياسي هذا ثلاث عشرة سنة حتى جاء انقلاب آخر فطرده إلى المنفى، وقضى بقية حياته بعد ذلك في منفاه بالقرية الريفية على التعاسة والفقر. نهاره مع الحطّابين أو مع الطحان والقصاب في القرية. والليل مع القراءة والتأمل في مصير بلاده والكتابة. كتب عدة كتب، كتابه السياسي وحده هو الذي قفز به، طار به، ترك اسمه على شفاهنا حتى اليوم. كتبه لأمير الميديتشي كان يأمل فيه أن ينقذ إيطالية من التجزئة والفوضى، ولذلك كان يجد أن يعمل هذا الحاكم على ذلك بكل وسيلة فـ «الغاية تبرر الواسطة» ... أي واسطة، ولو كانت القتل والغدر؟ أراد أن يداوي أمراض إيطاليا بالسم ومن السموم الناقعات دواء. ولكن ميكافيللي لم يرسل الكتاب لأميره، بل لم يطبعه، نقل بعضهم نسخاً عنه مخطوطة وطبع عشرين مرة بعد ذلك خلال السنوات العشرين التالية. على أن سيرة ميكافيللي سواء في الحياة أو في الحكم لا علاقة لها أبداً بكتابه، ولا بما في كتابه من الرأي، ثمة انفصال شبه كامل بين ممارساته في السياسة والحياة، وهي ممارسات فاضلة لا غبار عليها، وبين الأفكار الجارحة التي نشرها في كتابه. كان، كأنما ينتقم لفشله ومنفاه، يتمنى توحيد بلاده وحريتها ولو بالغدر والجثث. بلى، أمير الميديتشي الذي أهدى إليه الكتاب كان رمز الرذيلة. هل في التاريخ أكثر فضيحة من قيصر بورجيا؟ جرائمه، ضحاياه، لياليه الحمراء، صفعاته للأخلاق كانت تجسيداً للشيطان الميكافيللي. بطل كتاب «الأمير» الحقيقي هو هذا البرجي الرهيب. هل كان كتابه تبريرا

لحياة قيصر؟ اعتذاراً وضربة رياء وتملق، من يدري؟ قلائل هم الذين اتهموا ميكافيللي بذلك.

أما السؤال الثاني هو في الكتاب نفسه. ميكافيللي يقول: أنه كتب في الكتاب خلاصة ما رآه من أساليب الحكام الناجحين في التاريخ. استخلص أساليب النجاح السياسي ووضعها بكل عريها الفاضح أمام الأعين، الدولة في رأيه هي القوة، والقوة أشكال: منها السيف ومنها الخداع والكذب والنفاق والغدر. أشد الأفكار خطراً على السياسي في رأيه هي أن يؤمن قواعد الأخلاق الفردية هي التي يجب أن تسيطر في السياسة أيضاً، الميدانان مختلفان جداً، ولم يزعم الرجل أنه يكتب كتاباً في الأخلاق، كتابه كان في السياسة فحسب، يعتبرونه مؤسس علم السياسة الواقعية. وهو لم يزعم أنه يبتكر تلك الأساليب والوصايا.

وإن كان أسلوبه التقليدي المباشر يوحي بذلك، ولكنه يؤكد أنه خلص إلى كل ما خلص إليه بالتأمل والاستقصاء في أعماله العظام، خلال سنوات طوال من الانزواء. فهو إذن إنما يقرر واقع السياسة التاريخي. يؤكد أساليبها المتبعة ولا يشق لها طرقا جديدة. وإذا صار كتاب ميكافيللي كتاب المخدة لكل سياسي وإذا درسه، واستخدمه، فيما يذكرون، ريشيليو الفرنسي، وكريستينيا ملكة السويد، وفردريك ملك بروسيا، وبسمارك الألماني، وكليمنصو الفرنسي، أو اختار موسوليني موضوعاً لأطروحته في الدكتوراه هذا الكتاب، أو كان هتلر يضعه قرب سريره عند النوم، ولينين وستالين إذا كان ذلك، فما ذنب صاحبه؟ لو لم يكتبه ميكافيللي، فهل كان امتنع السياسيون عن الكذب والقتل والغدر والنفاق؟ وإذا كانوا يقرأونه، فهل كان يعلمهم جديداً لا يعلمونه أو لا يمارسونه؟ وشهرة الكتاب أليست صدى لرذائلنا ؟ ولو لم

تكن هذه الغرائز الوحشية في النسيج العميق، العميق من تكويننا فهل كان الكتاب يصبح أكثر من قصاصات ورق؟ أو أكثر من مخطوط يأكله التراب إن لم يكن قد أندثر؟ وإذن أو ليس ميكافيللي بالمظلوم؟ ما هو فينا من غرائز السيطرة والتحكم وتبرير الوسائل بالغايات، لماذا نلقيه على غيرنا؟ وحين استعرنا اسم ميكافيللي لممارساتنا اللاأخلاقية، ألم نظلمه حين جعلنا اسمه المشجب لنقائصنا؟ ألم نكن في ذلك من الظالمين؟

دمعة الأندلس الأخيرة

الفصل الختامي الشائع لنهاية الأندلس يحمل اسم أبي عبد الله الصغير، لقد أدمنا هذا الاسم، دمرناه، جعلناه رمز الخذلان والفجيعة. ولقب «الصغير» مع الاسم يأتي ليزيد من صغاره في الأعين، كأنما المأساة كلها هنا في هذا الرجل، إننا نراه في أوهامنا خارجاً من غرناطة، زمردة الأندلس الخضراء، خطى متعثرة وموكباً مهزوماً، وأجفاناً جفت حتى من الدمع، والمأساة مجرورة وراءه، تنعق، تنعق، تنعق كألف بوم وبوم، ويصل أبو عبد الله في الدروب المكدورة الصاعدة إلى منعطف في الجبال المطلة على غرناطة، دار ملكه المفقود، أضحت بعيدة تلك الزمردة هناك دون الثلج والجبل البنفسجي وردة أرجوانية في بحر الزمرد، إنها والسيوف وهناك وهناك، وطفرت الدموع من عيني أبي عبد الله فقالت له أمه، عائشة:

أبك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

ذلك المنعطف حيث بكى أبو عبد الله وهو يلقي النظرة الأخيرة على غرناطة، ما زال يحمل إلى اليوم اسم زفرة أو تنهد العربي، «السيسبيرو ديلمورو» من خلال هذه الصورة التي تمزج ما بين الموقف المسرحي وعصا الموعظة جرينا على أن نحكم على أبي عبد الله الصغير. فهل يحمل أبو عبد الله الصغير هذا وزر المأساة؟ هل فرط حقاً في الملك المضاع؟ لم

يحافظ عليه مثل الرجال فضاعت الأندلس؟ ولو حافظ عليه مثل الرجال، فهل كان أنقذ الأندلس؟ إن أبا عبد الله إنما هو حصيلة عدد من القضايا والظروف، أول ما يجب أن نعرف أن الرجل وأباه من قبل وأهله كانوا في رقعة صغيرة من الجنوب الشرقي للأندلس، أنكمش إليها الحكم العربي هناك منذ أكثر من قرنين ونصف القرن، فهي الأندلس الصغرى، وبالمقابل فإن أسبانيا كلها بملوكها والفرسان والقوى والمدافع كانت كلها ضده، هذه واحدة، أما الثانية فهي أن زواجين تما على الجانبين المسيحي والإسلامي، قبل سقوط غرناطة بحوالي ربع قرن أو أقل، كانا السبب في هذا السقوط، فأما على الجانب المسيحي فقد تزوج فرناندو الخامس ملك الأراغون وهي ثلث إسبانيا من إيزابيلا ملكة قشتالة وهي الثلثان الباقيان، فصارت إسبانيا مملكة واحدة بعد كل ذلك التمزق القديم، وهذا الزواج جعل من القوى الإسبانية المتعددة قوة عسكرية وسياسية واحدة. بالمقابل على الطرف الإسلامي في مملكة بني نصر الأحمر وقع ملك غرناطة أبو الحسن علي على إحدى السبايا الإسبانيات إيزابيل دوسليس، شغفته حباً فتزوجها وصار اسمها ثريا، وولدت له ثلاثة أبناء، لم يكن في الأمر شيء لولا أن أبا الحسن كان ذا زوجة هي ابنة عمة السلطان السابعة عائشة، وله منها أولاد كبار ينتظرون العرش: أولهم أبو عبد الله محمد، وثانيهم يوسف، وقسم التمييز والغيرة وأطماع الملك بيت أبي الحسن على نفسه، فأبو عبد الله ضد أبيه وإخوته من الرومية. وينقم عليه أبوه وعلى أخيه يوسف فيلقى بهما في السجن في القصر.

قضية ثالثة في قصة غرناطة ومملكتها الأخيرة هي أن أبا الحسن علي الملك لم يكن دون منافس عنيد ينافسه على العرش في تلك الفترة ويحاربه ويدمر كثيراً من قواه أقسى التدمير، هذا المنافس هو أخوه أبو عبد الله

المعروف بالزغل أي الشجاع. وجود هذا الرجل بهذه الكنية في الساحة السياسية العسكرية لتلك الفترة هو الذي دعا الناس إلى أن يلقبوا أكبر أولاد أخيه بأبي عبد الله الصغير تمييزاً له عن العم أبي عبد الله الزغل.

قضية رابعة في القصة هي أن الملك أبا الحسن علي كان في مطالع أيامه فياض الطاقة، كثير الجهاد، وقد أعد جيشاً فيه آلاف الفرسان، وفيه المدفعية الجيدة والذخيرة الوافرة، وقد عرف الاستفادة من الخصومات بين الممالیك المسيحية المتفرقة، وقد كانت دولته من قبل تدفع الجزية لملوك قشتالة فرفضها، وقال لرسول الملك القشتالي كنا ندفع لكم بعض الدنانير، ولكن دار السكة التي كانت تضرب فيها هذه النقود أصبحت الآن مصنعاً لرؤوس الحراب وسوف نختص بعد الآن بهذه الحراب، لا بالذهب، غير أن الأمور انقلبت عليه في أواخر عهده، حروبه مع أخيه ومع أبنه ومع الأسبان، دمرت جيشه وأرهقت شعب غرناطة بالمغارم والضرائب الثقيلة فأبغضه الشعب وجاءت بعض الفيضانات فهدمت القناطر والجسور والمنازل في بلاده، وتقدم في السن فانصرف إلى الطمأنينة واللهو المتأخر مع صاحبته الرومية، فغرناطة في أواخر الأيام ليست غرناطة آل نصر الأولين.

القضية الخامسة في قصة انهيار هذا الفردوس، هي قضية أو قضايا أبي عبد الله الصغير، كان في السجن وانتهز فرصة غياب أبيه في بعض الحروب فهرب من القيود بمعونة أمه عائشة وأعلن نفسه ملكاً على غرناطة، حين عاد أبوه ووجد الثورة والتيار الشعبي الجارف وراء ابنه، لجأ إلى أراضي أخيه أبي عبد الله الزغل ليموت هناك بعد قليل، ولزم سوء الحظ أبا عبد الله الصغير بعد ذلك، لم تمض سنة حتى وقع وهو يحارب القشتاليين في الأسر، صورته والتاج على رأسه والقيد في عنقه ما

تزال من محفوظات دار الرماية في غرناطة «كازاديل دو لوس تيروس» ولم يطلق سراحه إلا بعد أشهر، وبعد أن قبل الدخول في طاعة ملكي إسبانيا ودفع ١٢ ألف دبلة من الذهب وإطلاق ٤٠٠ أسير. ووضع ابنه مع عدد من أبناء الأمراء رهائن لدى الملكين ورجع أبو عبد الله ليجد القوة والنفوذ قد أصبحا لعمه أبي عبد الله الكبير الزغل فتقاسم معه البلاد، لكنه مرة أخرى بعد ذلك وقع في أسر الاسبان ولم يطلق من الأسر في هذه المرة حتى وقع بالتبعية الكاملة لملكي اسبانيا وبالتخلي عن لقب ملك غرناطة وحمل لقب دوق وادي اش وعاد ليغرق من جديد في المجازر مع عمه وفي العراك الدموي الطويل حتى هزمه.

فهل هدأ أبو عبد الله الصغير؟ ما لبث الملكان الاسبانيان أن طلبا تسليم غرناطة، واجتمع أبو عبد الله مع أهل المدينة فقرروا الدفاع، الدفاع حتى الرمق الأخير. وبنى الاسبان لجيشهم مدينة قرب غرناطة وبدأوا حرب الاستنزاف وحصار الجوع وشحت الأقوات وطاف اليأس في الأسواق واجتمع بقية الأنجاد والفرسان والعلماء إلى أبي عبد الله يرجونه المفاوضة مع هذين الجبارين وفاوضهما فوقع معهما معاهدة التسليم فيها ٦٧ شرطاً من الضمانات التي لم يفوا بواحدة منها، ثم خرج في موكب حزين فسلم مفاتيح المدينة والقصور الباكية بينما كانت أجراس الكنائس تقرع. هل صنع أبو عبد الله بيديه هذا المصير؟ أليس بالضحية؟ أليس بواحد من كبار المظلومين؟

الحصان المظلوم

كانت السيارة تهبط بنا سفوح جبال الأوراس الجنوبية مخلفة دوامة العجاج الهارب، والطرق الملتوية بين الوديان، تسلمنا من واد إلى واد، نستقبل الشمس والصحراء. لا شيء إلا الشمس والأفق الصحراوي المسحور لولا ما تفاجئنا به مجموعات متناثرة مشردة هنا وهناك في الأرض الحمراء من خضرة النخيل الصامد. وراءنا في أحد منبسطات القمم قبر مصطفى بلعيد صاحب أول رصاصة أطلقت في الثورة التي حررت الجزائر. وأعادت إليها وجهها العربي الإسلامي. وأمامنا وراء الأفق ننتظر أن نرى القبر الآخر، قبر أول من حمل الإسلام والعروبة إلى هذه البلاد، قبر عقبة بن نافع الفهري. الذي ثوى في هذه الصحراء منذ حوالي ١٣٥٠ سنة. وأطلت غابة واسعة من النخيل وقال الصحب: «إنها بسكرة» وحولت وجهي إلى الأفق الأغبر بجنوبها الشرقي. مد يعشي العين من التراب الأجرد أشبه بالنفوس اللئيمة. إذن فها هنا سهل تهودا. ها هنا قضى عقبة. ها هنا خرجت عليه الكمائن مع كسيلة قائد البربر، وهو عائد من أول مسيرة عربية وصلت المغرب الأقصى والمحيط الأطلسي بحر الظلمات، بعد أن سرح جيشه فلم يكن معه إلا عدة مئات من الجند. كل ما ادخرته الذاكرة من أخبار تلك المعركة استيقظ. انداح صوراً، دبت فيها الحياة، المسرح هنا.

وفي الوهم، قامت لعبة الضوء والصوت. تصور ما كان. تصور تكسير أغماد السيوف، تراكض الفرسان، اطباق السنابك، تناحر الرماح والسيوف، الأشلاء المتطايرة وينابيع الدم من الشرايين والشهادة، وأصررت على متابعة السير إلى «سيدي عقبة»، إنه الآن هناك في القرية المتواضعة التي تحمل هذا الاسم، على بعد نصف ساعة منا، الجمع الذي بني حول ضريحه ويحمل ثقل العصور وسذاجة التزيين البدائي القروي. أعمدة قصيرة، ودعائم من أعجاز النخيل، عليها تيجان مجهولة الأصل مغطاة بطبقة من الجص المخطط، طولانياً كالغصون، وأقواس بسيطة مجردة من كل زخرف، لولا ما حفر في بعضها من التزيين الهندسي، وقبر له الله من قبر متواضع مهيب في وقت معاً، رغم الغبار وفتات الزخرف وبقايا الباهت من الألوان. ورأيت للجامع بجانب منارته الطينية المربعة كالبرج قبتين اثنتين، وسألت عن الثانية لمن تكون؟ وفي خاطري أنها دون شك لزميل عقبة في القيادة والشهادة أبي المهاجر دينار. المفاجأة التي لم أنتظر هي أنها أقيمت لحصان عقبة. حصان دفين في المسجد وتحت قبة؟ وبجانب هذا التابعي الفاتح الكبير؟ ذلك الحصان الذي خاض به عقبة بحر الظلمات، يوم وصل بحر الظلمات، خاض به الماء حتى لباته وقال: «اللهم أشهد أني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك » إذن فذلك الحصان المجاهد لا يزال أيضاً يلازم صاحبه، إنه أول، ولعله آخر حصان يكرم هذا التكريم، يدفن، ويدفن في مسجد وتحت قبة!!.

في طريق العودة سكنت أخبار عقبة في خاطري وانطلقت أخبار الخيل العربية. ألم نظلم هذه الخيل؟ هذا الحيوان الرشيق المملوء نبلاً وخفة وسرعة وكبراً، أليس تاريخه بالتاريخ المتصل بالإنسان والطويل مع

الإنسان؟ ألم يقم مقام المصفحة والطائرة في التاريخ البشري؟ ألم يكن «سيارة» العصور وطائراتها حتى عهد قريب؟

المغول مثلاً، بنوا إمبراطوريتين على ظهور الخيل، زحفوا على أوروبا كالغضب الأزرق فيما بين القرن الرابع والخامس للميلاد، فوصلوا إلى أعماق فرنسا ودانت لهم أوروبا، اتيلا، زعيمهم كان صرخة الرعب والدمار للإمبراطورية الرومانية المهترئة، دمرها بتحركه السريع، دوخها بضرباته المفاجئة، أحد المعاصرين لتلك الضربات كتب: «لو جاء هؤلاء الوحوش سيراً على الأقدام لاستراحت منهم أوروبا مئات السنين، لسحقتهم». قواتهم المحمولة كانت تجبر الجيوش الرومانية الزاحفة على الأرجل ولو كانت كالجراد المنتشر على التقهقر، بعد ذلك بثمانية قرون كان جنكيز خان يغزو العالم، لأنه ـ كما قال ماركو بولو ـ يتحرك فوق ربع مليون حصان.

وفي تاريخنا العربي نحن، ماذا كان مكان الخيل في هذا التاريخ؟ عرقها الأنبل، الحصان العربي من صحرائنا خرج، وبها جاء القسم الإلهي، ﴿**والعاديات ضبحا، فالموريات قدحا، فالمغيرات صبحا، فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا، إن الإنسان لربه لكنود وأنه على ذلك لشهيد**﴾، وكانت إلى هذا وذاك إحدى ركائز القوة العربية التي أمر بها القرآن الكريم ﴿**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم**﴾ وإذا تحدثنا عن الفارس العربي المسلم الذي حقق الفتح المبين وذرع الأرض وما عليها ما بين مشرق ومغرب في عدة عقود من السنين، فإن ذلك الفارس لم يكن رجلاً فحسب، ولكن كان رجلاً وحصاناً معاً. وإذا كان يسابق الريح إلى الميادين ويكر، ثم يلوي، ثم يعطف وينساح في السهل، أويقدح شرراً على الصخور، أو يزحف على

البطون في الوديان، ويرقص رقصة الموت، فسيوف تهوي هنا وضربة تصعق هناك:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إذا كان ذلك فلأن العنان في اليد الأخرى كان.

ولأن رفيقه الآخر الحصان كان يعلك اللجم ويلعب الدور الحركي المتمم، ويستقبل الرماح والسيوف لتشرب بدورها من دمه. فرسان خالد وابن أبي وقاص وطارق ومسلمة وسيف الدولة وصلاح الدين، لم يكن واحدهم بروح واحدة يسير. ولكن بروحين اثنتين.

ويوم تكاثر الفرسان في أوروبا كرَّ على أرض العرب هؤلاء الفرسان وأعلنت الصليبيات. كانت الفروسية نبلاً من النبل، والنبيل إنما هو الذي يملك أرضاً وحصاناً للقتال، بل يكفي الحصان للفارس كي ينصب فارساً. وبكثرة الفرسان اكتسح الاسبان ذلك الفردوس الأندلسي الذي نعرف، قطعة قطعة اقتطعوه بالسنابك، وبالفرسان أنفسهم بعد ذلك اكتسحوا القارة الأميركية كلها ما بين شمال وجنوب، يوم الاكتشافات. الهنود المبهوتون أمامهم هناك كانت تشلهم المفاجأة. لم يكونوا يعرفون من قبل هذا المحارب الغريب الذين يرونه مجموعة من الحديد اللامع لها رأسان وأربع أرجل. كانوا يظنون الفارس وفرسه مخلوقاً واحداً. فتتجمد الصرخة في صدورهم ويفرون. لم يجرؤوا عند الحرب، على الوقوف في وجه الأوروبي، إلا حين عرفوا أن الفارس قطعتان: إنسان وحيوان معاً....

وانتزعني من شرودي وأفكاري وصول السيارة إلى بسكرة، تلفت مرة أخرى نحو سيدي عقبة لم أر هناك ضريح أول من حمل الإسلام

والعروبة إلى المغرب، ولكن رأيت لأول مرة أيضاً إنصاف الحصان العربي المظلوم.......المنكور!.

بعد إنطفاء الأنوار

هل تعرف من هم الموريسكيون؟ اعتدنا عند إسدال الستار على الملحمة الفردوسية التي تحمل اسم الأندلس، أن نطفئ الأنوار عند اسم أبي عبد الله الصغير.

ذلك المشهد عندنا هو الفصل الأخير من الملحمة. كأنما آخر مسلم كان هناك هو هذا الملك الصغير. ما جرى بعد ذلك ندخله في ضباب الآلام، نعتبره من الفواجع التي نتجاوزها بالهرب والنسيان. نعطيه عنوان «محاكم التفتيش». نعتبره من التاريخ الاسباني الأسود، من الذكريات المرة التي تقتل مئات الألوف من المسلمين الذين بقوا بعد مأساة السقوط في الأندلس ليعيشوا المأساة الأبشع والأعظم هم الموريسكيون. إنهم قطعة منا. الاسم الأعجمي الذي أطلق عليهم، أسهم في خفائهم. في تجليهم، في ضرب الأستار عليهم بعد أن ضربت عليهم تحت التنكيل والتعذيب أستار أخرى، في عملية من أشنع عمليات الخنق الحضاري، فالاسم تحول من الحسن وعيسى وبدر إلى خوان وخيسوس وبيدرو. واللقب صار من الغرناطي والإشبيلي والقرطبي إلى ديكرينادا وسيبليانو وكوردوبيز. واللغة لم تعد لغة القرآن. ولكن رطانة قشتالة الاسبانية. والملابس تغيرت فلا العمائم ولا الطيالس هناك، ولكن قبعات تحمل الشارات الزرقاء. المميزة، والسراويلات الضيقة.

والدين؟ في الدين خاصة، سيقوا جماعات تحت سياط العذاب لتلقي المعمودية في الكنيسة باسم الثالوث المقدس، ولكن، هل وصل لديهم رنين النواقيس إلى ما وراء الملابس واللسان؟ هل دخل حنايا الصدر أوعبر الصدغين؟ حكاية هذه المؤمنة استمرت أكثر من ثلاثة قرون في أشد الظروف هولاً. كجذور الشجرة العظيمة بعد الحريق ظلت تكن الجمر وتتقد بالجمر، مائة بعد مائة بعد مائة من السنين وطواحين العذاب الضارية تمزق، تفتت، تسحق، ترمي إلى المحرقة، المحرقة الجاهزة دوماً، من ترى عنده كلمة غريبة.. أو تهمس في ألفاظة بعض معاني الإسلام ...في السراديب الخفية المظلمة من البيوت احتفظوا بالعروبة والإسلام، وفي أخفى خفايا الصدور أيضاً. فكيف حافظت الشعلة على البقاء قروناً رغم العواصف المدمرة؟ كيف صمدت للتصفية؟ كانوا أقلية، كانت عدة المورسكيين حسب إحدى وثائق العصر، ٣٦٤ ألفاً بعد أن هاجر منهم حوالي هذا العدد. وعدةّ الاسبان ستة ملايين.

لجأ المورسكيون سنين طويلة إلى الانفجارات الثورية. كانوا ينتظرون في كل ثورة نجدة من المغرب لم تصل أبداً، يأملون الأمل الكبير في الأتراك العثمانيين الذين كانوا يومذاك إحدى قوى الدنيا. لكن لم يسمعوا منهم خبراً. ٢٨ ثورة سجلت في وثائق القرن السادس عشر من ثورات المسلمين في أسبانيا، وفي نواحي مختلفة منها. كالمصابيح المتابعة كانت تنفجر، تقاتل أشرس القتال، وتدفع أغلى الأثمان، ثمن الثورة. كان الموت الجماعي ومصادرة الأملاك أهون ما يلقون. العبودية الأبدية لأولادهم وللنساء هي التي كانت تسحقهم، والتعذيب الوحشي، الوحشي بحجة إخراج الشيطان من الجسد في أقبية الزبانية من الجند ومن قساوسة «محاكم التفتيش».

وأرسل الموريسكيون الكتب والوفود إلى سلطان بني وطاس في المغرب، والسلطان المملوكي في القاهرة، وسلاطين آل عثمان من محمد الفاتح حتى سليمان القانوني، بل حتى بعثوا بقائد منهم إلى قائد بحرية الأتراك العثمانيين خير الدين بربروسه، يستنجد. قوة العثمانيين التي كانت تنعش المعذبين في الأندلس، كانت في الوقت نفسه تزيد الاسبان اضطهاداً لهم وسحقاً. خوف التحرك كانوا يضطرونهم للنزوح. بربروسه، خير الدين هذا أنقذ خلال سبع محاولات وعلى ٣٦ بارجة ٧٠ ألف موريسكي.

مقابل هذا الخط السياسي الثوري كان الموريسكيون يحتفظون بحياتهم الدينية والثقافية كاملة، وراء الأستار الكئيبة، بل ويكتبون المؤلفات وينظمون الشعر والأغاني ويصومون ويذهب بعضهم إلى الحج. في القرن الماضي فقط كشفت الأبحاث المتصلة عن هذا الجانب الثقافي للموريسكيين. الكتب المصادرة من خزائنهم، والتي لا تزال تظهر يوماً بعد يوم حتى أميركا، كانت مكتوبة باللغة الاسبانية ولكن بأحرف عربية، لئلا تفتضح أسرارها. وماذا في تلك الأسرار؟ ماذا فيها من أسرار؟ إنها كتب دينية وفقهية وقصصية إسلامية. من مؤلفي الكتب الدينية لهم ذلك الذي يسميه الكتاب عيسى بن جابر. فقيه جامع شقوبية هو صاحب الكتاب الشقوبي أكثر الكتب الدينية انتشاراً بينهم. في تلك الأيام. تحت العنوان نقرأ بالحروف العربية: بريفرياريو سني «أي مختصر في السنة» مذكرة بأهم واجبات شريعتنا المقدسة وسنتنا. وفيه كيفية الصلاة والصوم والوضوء والدعاء. وثمة مؤلف آخر «التفسيرة» كتبه مؤلف مجهول يستتر تحت اسم «رفيق أريبالو» يتحدث عن اجتماع عدد من المسلمين في سرقوسطة وتداولهم آلامهم وماذا يفعلون ونقرأ فيه اسم

البدرائي أي أبي الدرداء وقتدانا أي قتادة. وكعب الأهبار أي كعب الأحبار. وقد جمع المسلمون لهذا الرفيق ما ذهب به إلى الحج.

وكتاب ثالث اسمه «كتاب في العقيدة» ما ينبغي على المسلم أن يعرفه وفيه أشياء أخرى من القصص، منها قصة توبة البائس. وثمة كتاب «التفريع في الفقه المالكي» لابن جلاب البصري، مكتوب بالحروف اللاتينية، وبجانب هذا فهناك الكثير من القصص الدينية وغيرها مما كتبوه بالحرف العربي واللغة القشتالية.

وكان للموريسكيين أيضاً شعرهم بهذه اللغة عثر على الكثير منها وفيه مثلاً قصيدة في مديح الرسول عنوانها «المدحة في مديح النبي». واللازمة التي تتردد فيها كل أربعة أبيات بالعربية «يا حبيبي يا محمد والصلاة على محمد». وترجمة المقطع الأول منها:

«يا ربنا صلي عليه، اشملنا معه بحبك، واحشرنا في جماعته في رحاب محمد يا حبيبي يا محمد. والصلاة على محمد». ومن شعرائهم في القرن السادس عشر إبراهيم البلفادي الذي كتب رسالة شعرية في الدفاع عن العقيدة الإسلامية على شكل مخمسات، وفي الشرح الذي عثر عليه منها يقول العنوان «إن صاحبها كان أعمى البصر منير القلب والذهن». كما نعرف الشاعر محمد رمضان من أهل روطة الذي نظم في شعر اسباني نسب الرسول وأموراً دينية أخرى. وإنما كانوا يستخدمون الشعر للحفظ السهل. وثمة رباعيات وخماسيات أخرى كثيرة، وكان للموريسكيين بجانب شعرهم زجلهم وشعرهم المغنى الباكي، أغنية من أغنياتهم تقول: «يا ربي يا من ترى ما يقاسيه عبادك، فهم أموات في الحياة، وفي الأجساد، جحيم تلظى، بسبب خطايا آبائهم الذين كانوا يعيشون دون رادع. يا رب ارفع عنا سيف غضبك الملتهب».

أما الأغنية الزجلية الأشهر فتقول: «على الرغم من الأسر التعيس، الذي أراده الله لنا بحكمته الخفية العادلة، فإننا نبكي عزّ دولة الإسلام، وما قدّر عليها من شقاء وليحيى دين الله».

حكاية الموريسكيين ملحمة أندلسية أخرى، ولكنها الملحمة المأساوية لا الضاحكة، هي حكاية الراكعين على الجمر، لا الراقصات بالموشحات على مدارج الحمراء. هذه القطعة التي هي منا، من قلوبنا ومن ذواتنا والتي تركناها تذوب. تذوب بالغربة، أليست مظلومة ظلمين؟ ظلم الإهمال الأول وظلم أن لا يعرف نضالها أحد؟ أن لا يتذكر صمودها أحد؟.

البطل... المطارد

«الشعب الذي ينسى من أذله، شعب لا يستحق لقمة العيش. والشعب الذي لا يعرف الكراهية العظمى لا يستحق المجد الأعظم ولا يستحق أن يعيش». ليست هذه الكلمات من عندي، لقد أطلقها قبل ٢٢ قرناً رجل كان رعب البر والبحر في عصره، عاصفة الغضب والحقد. وكانت هذه الكلمات منهاج حياته حتى الموت. وقد ظلم من أجلها حتى الموت، وظلموه من أجلها بعد الموت أيضاً، فهو في التاريخ الذي كتب له الوحش والسفاح والمجنون ومصاص الدماء وهو الحقد الأسود واللعنة وشبح الدمار الرهيب. الرجل هو هنيبال، وذنبه الأعظم أنه كان يحب بلاده قرطاجة، يحبها لدرجة الشرب من دم أعدائها وعدوهم الرومان، ولم يكن هؤلاء أقل وحشية ولا سفكاً وعدواناً ولا حقداً أسود.

أحد زعمائهم «كاتو» جعل اللازمة التي ينهي بها كل خطبة من خطبه أيا كانت الخطبة: «يجب أن تدمر قرطاجة»، ولكن الرومان هم الذين ربحوا الحروب في النهاية وخسرتها قرطاجة. ولذلك كان قياصرة روما السفاحون أبطالاً ولهم أقواس النصر وأكاليل الغار، وكان هنيبال الوحش المجنون الذي يطارده الناس وتطارده روما إلى أقصى الأرض وحتى الانتحار. ويطارده الاتهام عبر التاريخ إلى اليوم بأنه قتل نصف مليون روماني. فما الحكاية من أولها؟

روما قبل الميلاد بثلاثة قرون كانت تتوسع على كل إيطاليا ومقابلها على البر الأفريقي، تونس اليوم، كانت قرطاجة الفنيقية، بلداً ذا تجارات واسعة، تملأ البحر أشرعة ومستوطنات على أطراف البحر المتوسط تملؤه فاعلية ونشاطاً. وطمعت روما في تجارة قرطاجة وثرواتها و لم تجد وسيلة لتحقيق أطماعها سوى الحرب. الحروب الأولى دامت ٢٣ سنة دمرت مستوطنات قرطاجة، أنهكت قواها، وصل الدمار حتى المزارع المحيطة بقرطاجة، وانتهت الكوارث المتبادلة بتنازلها عن معظم أراضيها لروما وفقدان معظم الأسطول ودفع أتاوة ذهبية ضخمة لروما على مدى ١٠ سنوات. واستردت قرطاجة أنفاسها ونشاطها التجاري بالتوسع بعيداً عن روما في اسبانيا. مناجم الفضة والحديد والنحاس التي انفتحت عليها هناك أعادت إليها الغنى، ولكن الناس ظلوا بين الألم ومذلات الهزيمة، وبين الخوف من الحرب وتجدد النزاع فريقين. الحزب العسكري بزعامة أسرة بارك ورجالها هملكرت وصهره أسد روبال يجمع إليه أنصار الثأر من الغيرة والحكومة التي يسيطر عليها تجار محافظون، ينظرون بعين الغيرة والخشية إلى نفوذ هؤلاء ويريدون الخلاص منهم. ولكن الثروات المتدفقة من إسبانيا بجهود تلك الأسرة العسكرية كانت تملأ أفواههم بالفضة، فلا يجدون الكلام. العسكريون كانوا يريدون أن يعيدوا لقرطاجة فخرها، فخرها الذي كانت تفخره في الماضي من أنه لا يستطيع روماني أن يغسل يديه في البحر المتوسط دون إذن مكتوب منها، وتلك القصة نفسها عادت تسيل لعاب روما وتدفعها إلى التدخل مرة أخرى لخنق النشاط القرطاجي المملوء ثروات.

وحين قتل في المعارك باسبانيا القائد أسد روبال (الأسد الرئبال) الملقب بالبرق، لم يجد القرطاجيون أفضل من شقيق زوجته هنيبال ابنها

ميلقارت الملقب بالرعد. كان في الخامسة والعشرين من العمر ولكنه كان يفخر بأمرين: أنه رضع بغض روما قاهرة بلاده مع حليب أمه وأنه لم ينم تحت سقف أبداً.

أبوه أخذ عليه عهد الآلهة وعمره تسع سنوات، أن يحارب الرومان إلى الأبد في كل مكان. وحياته كانت أبداً في القلاع وخيام الجند. العمل العسكري الذي قام به هنيبال بعد ذلك كان من معجزات الحروب، فتح في اسبانيا مدينة ادعت روما أنها تحت حمايتها وطلبت من قرطاجة تسليمها هنيبال ومساعدته وإلا آذنتها بالحرب. واستطاع الحزب العسكري أن ينال من حكام قرطاجة رفض المطلب الروماني. أما هنيبال فأجاب عن ذلك بمسيرة حربية لم يسبقه إليها أحد في التاريخ: حشد ٤٠ ألفاً من المشاة والفرسان من كل جنس ولون، وفي مقدمته كان ٣٠ فيلاً. الأفيال كانت بدعته الحربية يومذاك، وسار من جنوب اسبانيا بالبر نحو روما، سرعته في الحركة وفي اجتياز جبال بيرانيه بين فرنسا وأسبانيا ثم عبور جنوب بلاد الغال فرنسا أذهلت الرومان. على طول الطريق كان يحارب. كان يكفيه أن يطلق دباباته من الفيلة لتنهزم الشعوب أمامه. عند نهر الرون احتاج إلى جسر للعبور فجعله من جثث الأعداء وجاءت بعد ذلك العقبة الكبرى، جبال الألب ومن له باجتياز جبال الألب؟ وكيف تصعدها الفيلة؟ وسجل هنيبال في التاريخ أنه أول من عبر بالفيلة وبهذا الجيش اللجب وبالوسائل البدائية.

في جبال الألب من فرنسا إلى سوليبو في إيطاليا. هاجمته العواصف الثلجية في الجبال، أكلت الصخور الزرق من جثث أصحابه، طمرتهم الانهيارات، ذبحتهم الوديان لا قرار لها، والضباب لا يكاد ينكشف. صحيح أنه بقي في ٢٠ ألف محارب وستة آلاف فارس فقط وعدة أفيال،

ولكنه اجتاز جبال الألب وانحدر نحو روما من الشمال. بهذه القوة فقط استطاع أن يسحق الرومان جيشاً بعد جيش، صار فزع العصر. نساء الرومان صرن يهددن أولادهن بهنيبال، أما هو فكان وحيداً مع جنده ويعرف أنه وحيد في هذه البلاد العدوة، فإما النصر وإما الموت، واستخدم جميع حيل الحرب الجاسوسية والمفاجأة والتحرك السريع والإرهاب الوحشي وجر العدو إلى مكان وزمان المعركة والبيات. في إحدى المرات أتى بمائة ثور فلف القماش على قرونها وأشعل فيها النار وأطلقها في الليل في حقول القمح التي يختبئ فيها الرومان واحترقت الحقول. أما جنون الأبقار وهي محترقة القرون فكان كافياً لهزيمة العدو. ولما لم يستطع أخذ روما بسبب قلة الإمدادات التي تصله من بلاده راح يهاجم البلاد التابعة لها في أنحاء إيطاليا، ١٧ سنة ظل يحارب الرومان على أرضهم، وهم يحاولون نقل الحرب إلى أرضه في اسبانيا، وفي قرطاجة نفسها.

سلسلة المعارك التي قادها كانت سلسلة ملاحم من البطولة والمجد الحربي، لم يخسر معركة واحدة ومع ذلك فقد خسر الحرب. حين أشرف أخيراً على روما، جاءه نبأ مفجع. اتفق التجار والحكومة في قرطاجة ضده، خضعوا للضغط الروماني، وخافوا طول الحرب والنفقات، لا سيما بعد أن أخذت روما اسبانيا وانقطع نبع الفضة والنحاس من هناك فاتهموا هنيبال بالجنون، وبأنه ضلل الشعب وأنه بدد الأموال، مع أنهم لم يدفعوا له شيئاً. وأبلغوه القرار بأن يعود. وغادر هنيبال إيطاليا مهزوماً وهو الذي لم يقهر عليها مرة واحدة. حاول حين وصل بلده أن يجمع قواها لمواجهة حملة الرومان التي تطالب برأسه وبإخضاع بلده. وخان المرتزقة جيش قرطاجة فانهزم. وسلمت للرومان

جميع سفنها الحربية وكل الفيلة مع أتاوة سنوية تمتد ٥٠ سنة ورهائن من أهلها لئلا تعاود الحرب أبداً. ولما حاول هنيبال قيادة بلده لبنائها من جديد طلبت روما رأسه. وهرب الرجل إلى سوريا آواه ملكها في إحدى القلاع ولكن روما طلبته منه فهرب متنقلاً حتى لجأ أخيراً إلى ملك أرمينيا في أرمينيا ولاحقته روما لدى ذلك الملك فلم يجد هنيبال مخرجاً وكان شيخاً في الرابعة والستين. لم يجد مخرجاً سوى الخاتم الذي في يده وكان يحوي من السم ما يكفي للخلاص. يقولون أنه كتب على الحائط آنذاك: إلى روما أعدائنا حاربتكم ٤٠ عاماً واليوم يموت آخر جندي في رتل الكراهية الأبدية لكم.

ماذا كان جزاء قرطاجة التي تخلت عن رجلها..؟ كان جزاؤها أن تحرث أرضها حرثاً. بعد ٥٠ سنة عادت روما فطوقتها ثم دمرتها وأحرقتها وبالمحاريث حرثت أرضها وأصدر مجلس الشيوخ الروماني قراراً يلعن هذه الأرض ومن يبني عليها حجراً.

ترى ألم يكن هنيبال المظلوم ينطق بالحكمة حين قال: الشعب الذي ينسى من أذله لا يستحق لقمة العيش والشعب الذي لا يعرف الكراهية العظمى لا يستحق المجد الأعظم ولا يستحق أن يعيش؟

زعموه الحاكم المعتوه

لو سألتك ما الذي تعرفه عن قره قـوش لأجبتـني بأنـه حـاكم أحمـق، وأكملت الصورة، بنادرة أو اثنتين مما تحفظ وأحفـظ. تقـول: يـروون أن دائنا جاء بمدينة إليه يطلب إلزامه بدفع الدين وقـال المديـن كلمـا جمعـت المبلغ أدفعه إليه لم أجده، ويتبدد المال مني فلا أستطيع السداد، فقـال قـره قوش: إذن، احبسوا الدائن حتى إذا فتش عنه المدين وجده ودفع الدين.

وأقول ويروون، أنه حكم بإعدام قاتل ولكن الجلادين عادوا يقولون: أن الرجل قصير والمشنقة عالية فماذا يصنعون؟ فقال قره قوش: فتشوا عن رجل طويل واشنقوه.

ويقول غيري وغيره يـروون ويـروون. أن باستطاعتك أن تجمـع مـن هذه الطرائف سلسلة لو شئت، لكنك لن تجد من ملامحه التاريخيـة شيئاً، الرجل أضحى شـخصية بـين الحقيقـة والخيـال. ضـاعت كـل معالمهـا في الضباب، وبقيت منها تلك الهالـة مـن حماقـات التنـدر، قـره قـوش لـدي ولديك أنموذج الحاكم الأحمق، صورته تتنزل كلما مرت قضية لا منطقية بين الناس. وكما يعرف المجرمون بسـيماهم كذلـك يعـرف أحمـق الـرأي بقره قوشيته.

صارت القره قوشية طريقة في الأحكام نستنجد بها عند كـل مفارقـة سخيفة، مذهباً في الحكم بينه وبين المنطق حـرب البسـوس. والاسـم قـره

قوش تركي غريب ويعني «الطائر الأسود». فمن هو صاحبه الحقيقي؟ ومتى كان؟ وأين كان؟ وما حقيقته؟

ويحك التاريخ رأسه والجبين يتذكر من هو قره قوش؟ ويقلب دفاتره القديمة ويستعرض الأسماء. من ذلك السلطان الذي استحق كل تلك السمعة في الحماقة وسوء الحكم والغباء؟ ثمة في التاريخ أربعة معرفون حملوا هذا الاسم، والأربعة كانوا في عصر واحد هو النصف الثاني من القرن السادس للهجرة، عصر صلاح الدين الأيوبي، قبل ثمانية قرون: أولهم قره قوش أحد قواد طوغان شاه ابن المؤيد صاحب نيسابور في إيران، والثاني قره قوش أحد قواد عبد الملك بن المقدم ونائبه في أفاميا من بلاد الشام. والثالث شرف الدين قره قوش التقوي المظفري مملوك تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين. وقد قام بمغامرات حربية كثيرة في طرابلس الغرب وأفريقية وجمع الثروات وكاد يؤسس دولة هناك، وقد حاولها فعلاً لولا أن هزم أمام أبي يعقوب سلطان الموحدين. وأما الرابع فهو بهاء الدين أبو سعيد قره قوش ابن عبد الله الأسدي وليس من بني أسد ولكنه مملوك طواشي لأسد الدين شيركوه عم صلاح الدين الأيوبي، ثم لصلاح الدين من بعده. وكان أحد قواد جيش صلاح الدين. بهاء الدين هذا هو صاحبنا الذي نذكر ونتندر ونركض وراءه بأجراس الحماقة عبر العصور. فماذا عن الرجل؟

الغريب أن المفارقة واضحة وجارحة معاً ما بين حقيقته التاريخية وبين صورته الشعبية الراكضة، وهو في التاريخ بطل كبير من أبطال الإسلام وأما في الخيال الشعبي، فحاكم مضحك يلبس طرطوراً بأجراس. وسقط البطل مع الأيام، غامت ملامحه، انمحى تماماً. بقي الرجل أضحوكة.

سحقه التاريخ سحقاً ثم صاغ منه شخصاً آخر كان هو الأبقى والأخلد... وكذلك ظلم التاريخ.

قره قوش القائد، رافق صلاح الدين في جميع مراحل حياته وجهاده، ورافق أبناءه بعد مماته، وإذا لم يكن صلاح الدين فرداً صنع المعجزة ولكنه بمجموع جهد عشرات القواد صنعوا المعجزة معه، فإن قره قوش واحد من هؤلاء. كبيراً من هؤلاء كان، من القلة الملتصقة بصلاح الدين كان. لم يكن صلاح الدين أكثر من قائد عادي في جيش عمه بمصر حين كان قره قوش صديقه وعونه. ويوم اختير صلاح الدين للوزارة ثم ألغى الخلافة الفاطمية، لم يجد أحزم ولا أكثر أمانة منه ليكون زمام القصور الفاطمية وليحفظ ما فيها من الثروات، وما أدراك ما بها من الثروات مكتبة القصر كان فيها ١٢٠ ألف مجلدة ملكية. من جواهر القصر قضيب زمرد طوله شبر وكسر في إبهام. وجبل من الياقوت وأكوام من الحجارة الكريمة، ومن سلاح القصر عشرة آلاف سيف محلاة بالجواهر، ومن أدوات القصر من الذهب الخالص والفضة النقية ما لا يعد عداً. الستور والفرش المنسوجة بالذهب وآلاف الأثواب، فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمر قره قوش وحكمه. وترك صلاح الدين مصر إلى الجهاد في الشام فكان قره قوش نائبه في الحكم في مصر حوالي ١٥ سنة. وأمره صلاح الدين أن يقوم بأعمالها الدفاعية، فبنى قره قوش سور القاهرة الذي ما تزال بقاياه وبقايا أبوابه في شرقي القاهرة وغربها وبين قلعة الجبل التي ندعوها اليوم في مصر بقلعة محمد علي واسمه ما يزال منقوشاً عليها. وبنى بالمكس رباطاً للمرابطين في الأبراج، وزاد قره قوش على ذلك فأقام عدداً من الأبنية الدينية منها: خان سبيل على باب الفتوح في باب القاهرة، ووقف الأوقاف الكثيرة على العديد من

الجهات، واستخدم في الأبنية كلها أسرى الفرنج وكانوا لديه بالأعداد الوفيرة جداً، وقد شاهدهم الرحالة ابن جبير الأندلسي وهم يعملون وكتب عنهم.

وحين احتل صلاح الدين عكا وأراد حمايتها من الردة الصليبية كان قره قوش أحد القائدين اللذين عهد إليهما بالدفاع عنها، وكان زميله هو ابن المشطوب. وحاصر الصليبيون المدينة ثلاث سنوات والقائدان يعانيان مأساة الدفاع اليائس، وحين سقطت عكا وأسر قره قوش افتداه صلاح الدين بستين ألف دينار، وفرح أشد الفرح بعودته وأعاده لحكم مصر. ومات صلاح الدين فسلم قره قوش هذا البلد إلى ولده الملك العزيز عثمان فلما مات عثمان بعد سنتين لم يجد الأمراء من يكون وصياً واتابكا لابن الملك العزيز الطفل سوى قره قوش المشرف على تربيته. فضلوه على عمي الملك الطفل وهما حيان يسعيان.

وبعد، فماذا يقول المؤرخون المعاصرون عن قره قوش نفسه؟

يقول الأول أنه كان رجلاً مسعوداً وصاحب همة عالية، حسن المقاصد، جميل النية، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين، وكان معتمداً في أحوال المملكة واعتماد صلاح الدين عليه ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه.

ويقول الثاني كان من أعيان الأسدية، جند شيركوه كلهم يرجعون إليه وكان يلقب بالأمير الكبير.

ويقول الثالث كانت له رغبة في الخير وأثار حسنة ولولا وثوق صلاح الدين بعقله لما سلم إليه مصر وعكا وغيرهما، وقد وضعوا عليه خرافات لا تصح...

وصلنا إذن إلى مربط الفرس، ما قصة هذا الخرق في الحكم ينسب إليه حتى يغرق كل بطولاته؟ القصة هي أن الرجل كان حازماً صارماً عنيد الرأي، كان عسكرياً لا يتراجع عن قرار، والناس في مصر، منذ كانوا، مولعون بالنكتة، وقد تندروا بعناده ضخموه حتى التشويه. أعطوه الصورة الكاريكاتورية، وقد اصطدم قره قوش بالرجل الذي يشرف على شؤون المال بمصر واسمه الأسعد بن مماتي، وأكرهه كما أكره جماعته في بناء سور القاهرة على جلب الحجارة الغرانيتية لهذا السور من أسوان لا من حجارة المقطم الحوارية الرخوة، وضاق ابن مماتي ذرعاً بقسوة الرجل وعناده فجمع النكات الشائعة في كتيب سماه «الفاشوش في أحكام قره قوش». ومات الكتاب وصاحبه حتى آل الأمر بعد بضع مئات من السنين إلى حكام من المماليك، قره قوشيين بالفعل، فأحيا الإمام السيوطي الكتاب ونشره فكان الاسم لقرقوش والفعل للمماليك.

وانفصل عن البطل الذي كان، حاكم آخر جرى على الأجيال يعتل على ظهره كل الحماقات. أرأيت كيف نظلم دون أن ندري قره قوش أرأيت كيف ندمر بأيدينا هذا البطل الإسلامي الكبير؟

الشعب الضائع

المظلوم الذي سأتحدث عنه هذه المرة ليس إنساناً فرداً ولكنه شعب إنساني كامل. هل تذكرون الغجر؟ الغجرية ذات التنورة المزركشة. والعينين تطل منهما في أعماق ألف بئر، وأصداف الودع تنتثر لتكشف دبيب الغيب ودخائل القلوب.

هذه الشخصية نصطدم بها في كثير من أعمال الأدب الكلاسيكية.

تظهر عند كل ضربة قدر كأنها نذير المأساة المقتربة. ولكنها ليست مجرد صورة أدبية، إنها صورة شعبية مألوفة في كل مكان، ألست تذكر خيام النور؟ ألست تذكر البصارة البراحة؟ ومع ذلك فهل سألت نفسك من هي هذه البصارة البراجة؟ من هم هؤلاء الغجر ومن أين هذا الشعب الضائع في مدارج الأرض كأنما أمسكت به يد شيطان رجيم فنثرته في الأرض نثرا، العائش على هامش الناس في أطراف المدن والقرى كأنما هو بعض اللبلاب والعليق الوحشي، هذا الشعب المظلوم حتى العظم فلا أرض ولا احترام ولا مكان في المجتمع الإنساني، ما هو يا ترى؟ هل سألت؟ بلى، نحن نسأله في البخت والحظ كأنه أجير للقدر. فصحائف الغيب بين أصابعه وعينيه، وتهز الخصور على أنغام طمبوره، فهو اللهو الرخيص على الأرصفة ولكننا لا نسأل من أين ينبع هؤلاء حين يظهرون ولا أيان يذهبون حين يغيبون؟ وفيم نسأل أنهم نور. ولهم كذلك الأسماء

الأخرى منهم: الجبسي في أنكلترا، والبوهيميون والتسيكان في فرنسا، والغجر والنور عندنا، والسيابجة والزط في تاريخنا، وهم الرومان الرحل في البلقان، والتتار في السويد والهيثينز في ألمانيا والخيتانو في اسبانيا، كل أمة أعطتهم اسماً حتى ضاعت الهوية والأصل في دوامة الأسماء، وتسأل هذا الشعب المنكود عن أصله فيزعم أنه من مصر الصغرى «LITTLE EGYPT » ومن هنا جاء اسمه جبسي، ولكن من أين جاءته الأسماء الأخرى؟ وأين هي مصر الصغرى هذه؟ ويزعمون أن لهم ملوكاً وملكات، وثمة من يدعي أنه ملك الغجر، وما هم إلا زعماء القبائل الغجرية هنا أو هناك.

وتسأل هذا الشعب عن هذا التفرق في مسالك الأرض، ما سببه؟ لماذا كان وطنهم دائماً الخيمة والعربة التقليدية وظهور الحمير؟ فيبرز بعضهم الوثائق بأن البابا فرض عليهم عقوبة ذاتية للتكفير عن خطاياهم، أن يهيموا على وجوههم في الأرض سبع سنوات. ويبدو أنها لم تنته تلك السنوات السبع بعد.

وأن حكم التكفير سرى على البروتستانت منهم، والمسلمين والبوذيين فهم على دين البلاد التي يعيشون فيها، وعلى عقائدهم الخاصة بها أيضاً، فهل أرجع بك إلى شيء من التاريخ؟ قصة هذا الشعب الذي خرج ذات يوم من بلاده ولم يعد تبدأ قبل الإسلام ببعض القرون. سهول الجنوب الغربي من حوض السند هي مواطنهم الأصلية. «الفردوسي في ملحمة الشاه نامه» يعطي خروجهم الشكل الأسطوري يقول: أن بهرام جور ملك فارس في القرن الخامس الميلادي سأل ملك الهند أن يرسل إليه عشرة آلاف من اللوريين البارعين في عزف العود فأرسلهم إليه. ويظهر أن الفقر والقحط والجوع هي التي أخرجتهم لا عزف العود، فأنساحوا

في جنوب إيران وحتى جنوب العراق وفي الخليج. حين كان الفتح الإسلامي كانوا هناك، ثم كان لهم دورهم في واقعة الجمل وبعد ذلك بمائتي سنة أيام المأمون ثاروا.

بلى، ثاروا، كانوا قد اجتمعوا وتكاثروا في البطائح في تلك الأهوار المستنقعية بين الخوص والقصب، فقطعوا الطرق وأعملوا السيف بالناس ٢٠ سنة. حتى دخل الجيش عليهم الأهوار، كانوا ٢٧ ألفاً من النساء والذراري. لم يقتلوا، سيقوا في المراكب وعليهم عددهم الحربية والأبواق حتى بغداد.

وجلس الخليفة المعتصم ينظر أرتالهم في دجلة وأبواقهم تصدح، ثم سيق القسم الأعظم منهم إلى منطقة الحدود مع الروم في الأناضول. والروم هم الذين أغاروا عليهم بعد ٢٠ سنة أخرى ونقلوهم إلى وسط أوروبا، ومن هناك تفرقوا بدوا في المسالك، يقدرون عدتهم اليوم في العالم بين سبعة وثمانية ملايين، نصفهم في أوروبا الغربية والشرقية، والنصف الآخر منثور في مدغشقر إلى السودان ومصر وشمال أفريقيا، وبعضهم اليوم في الولايات المتحدة وكندا والبرازيل ونيوزيلندا وأستراليا عدا ما في الجنوب الشرقي من آسيا وفي الهند بالطبع. ولهذا الشعب لغته ولغته التي يتفاهم بها كل الغجر، إنها تراثهم الموحد ولكنهم يتحدثون أيضاً كاليهود بكل لغات الأرض التي يعيشون فيها، ولقد جرت محاولات عديدة لتنظيم هذا الشعب العاثر الحظ. منذ قرنين إلى اليوم وهم يحاولون. غجري بولوني اسمه «كويكز» أقام سلالة مالكة في بولونيا سنة ١٩٣٠، وآخر اسمه «كاسكو» أقام رابطة في نيويورك سماها «الأردية الغجرية الحمراء»، ولكن تنظيمهم الحقيقي القائم هو أنهم قبائل وقبائل

تقوم على أساس الأم لا الأب، ويشعرون حتى الأعماق بهويتهم الذاتية وتراثهم الخاص المميز.

وماذا بعد أيضاً؟ أنهم لا يهتمون بالمال، يقولون «الرجال يصنعون المال ولكن المال لا يصنع الرجال». اللامبالاة ثروتهم الكبرى ولا يأبهون بعد لقيمة أو لتقاليد إلا التقاليد الغجرية، إنها مقدسة. وأما الفردوس عندهم فحيث يجدون الطعام الوافر والدخان، أو الدخان والطعام الوافر. فالدخان هو الأول. الغجري الجائع إن خيرته بين الطعام والدخان فضل الدخان، غليونه المسائي قمة السعادة، أما الكحول فهو ضعفهم الأكبر.

وليس الغجر دون عمل، ليسوا كالتماسيح التي تتثاءب في الشمس. إنهم متخصصون في عدد من الأعمال. في صناعة النحاس، والمجوهرات، في تربية الخيول، في تدريب الدببة والكلاب والقردة والماعز ببهلوانيات السيرك، لكن شهرتهم الأساسية إنما هي في أمرين: العرافة والموسيقى، أنهم العرافون التقليديون، أسرار الحظوظ في أيديهم وأنهم مادة الفرق الموسيقية الشعبية في الغرب، وقد نبغ منهم عازفون عالميون أمثال «بويكو» عازف الكمان و«شيفرا» عازف البيان «ورينهارد»عازف القيثار.

هذا شيء من التاريخ، جانب منه فقط هو الجانب الهادئ الأبيض، أما الجانب الأسود فلم أذكره بعد. إن هذا الشعب الذي يعيش دون سقف أيضاً تحت رحمة الله. تاريخ الغجر ملحمة طويلة من الاضطهاد والسحق المتصل. كانوا الأشلاء لكل من أراد أن يجرب سيفه، من مضيق مسينا إلى بحر البلطيق، ومن روسيا إلى إنكلترا واسبانيا، لم يعرفوا في أوروبا سوى الاستعباد والسياط والشنق وحطب المحارق لمجرد أنهم غجر.

ذات يوم في القرن الثامن عشر كانت طريدة حملة من حملات الصيد في الغابات على نهر الراين غجرية تحمل طفلاً على صدرها. في النصف الأول من ذلك القرن صدر ٦٨ مرسوماً من إمبراطور النمسا ضد الغجر. في انكلترا صدر قانون بالموت على من يصادقهم ودون حق بالمحاكمة، لأن قيامهم دون جدران، وأيديهم دون خناجر، جعلهم نعجة الذبح. التهمة الكبرى كانت تكفي لقتلهم في نظر الكنيسة والناس هي ممارسة «السحر الأسود»، هذه الكلمة المرعبة متى ألقيت إذن فالجموع ثورة مجنونة لا يطفئها إلا دم الغجري الأحمر، حتى في هذا القرن سحقوا. النازية ساقتهم كما ساقت اليهود إلى أفران الغاز أبادت منهم عشر عددهم، وقامت الدنيا و لم تقعد لاضطهاد اليهود....

أما الغجر؟! فلم يسمع بانينهم أحد !! «سيرفانتس» كاتب اسبانيا الأكبر كتب على لسان أحدهم منذ ثلاثة قرون يقول: «تعلمنا الألم منذ زمن طويل، تعلمناه فلم نعد نحس الألم. أشنع العذاب لم يعد يجعلنا نرتجف، ولا نهاب أي نوع من الموت، هو والحياة سواء، لهذا نغني والأصفاد تذبحنا وحتى في أعمق حفر السجون».

هذا الشعب السائر على دروب الحياة بفلسفة لا مبالية وطمبور على الكتف وعين تخرق الغيب ألا يستحق أن نألم له؟ أليس بالشعب المظلوم؟ ولا تسألني هل هم الشعب الوحيد المظلوم؟ فليس عندي من جواب سوى الصمت، الصمت العميق!!

أبو يحيى المظلوم

إذا قدمت بالبحر على «مايورقا» الجزيرة الزمردية النائمة في قلب البحر المتوسط الغربي، ووصلت عاصمتها الجنة بالما، فإن أول ما يواجهك على الشاطئ من الأبنية الأثرية هو قصر هذا الرجل، قصر أبي يحيى التنمللي، كالقلعة الشامخة ينتصب، تطير وتحط عليه الحمائم البيضاء، أنهم يسمونه «المدينة». وفي القصر في الداخل تجد في إحدى القاعات صورة أبي يحيى، كما تخيله الرسام، يقدم وهو راكع مفاتيح المدينة للملك خايمه الفاتح. عمر هذا المشهد اليوم ٧٥٨ سنة، ويسجل نهاية ٥٠٠ سنة من الحكم الإسلامي لتلك الجزيرة الزمردة، غابات الزيتون المعمرة هناك عاصرت هذا المشهد، أشجارها التي أضحت من العقد والقدم والتعرج أشبه بمعرض هائل للنحت السريالي لا تزال صامدة تحتفظ بأخيلة الفرسان العرب الذين زرعوها، والذين كانوا يخترقون ظلالها كالسهام الملتهبة.

في مطلع القرن السابع للهجرة، الثالث عشر للميلاد، كانت مايورقا مع جزر الباليار الأخرى مينورقة ويابسة وغيرها ضمن سلطان الموحدين الذين كان لهم حكم الأندلس والمغرب أيضاً. وكان الوالي على تلك الجزر منذ سنة ٦٠٥ أو ٦٠٦ هو أبو يحيى محمد بن أبي عمران علي بن موسى التنمللي. ٢٠ سنة ونيفاً استمرت ولايته باسم الموحدين. كان

سلطان البحر وتجارته ما بين السواحل الأفريقية والأندلسية والفرنجية والإيطالية هي التجارة الأولى. على أن قوة الموحدين اضطربت الاضطراب الكبير في آخر الفترة في الأندلس بسوء الإدارة. دمرهم التفرق وفيما كانوا يتمزقون وتقوم ضدهم دعوة الأمير الثائر محمد بن هود، وينقسم بشأن ذلك الناس، كانت القوى الاسبانية تتمرد، تشحذ السكاكين، وتتلمظ بالغنائم الممكنة.

هل كان أبو يحيى في جزره البحرية بعيداً عن هذا الصخب والانقسام وعن الأطماع؟ ما كان إلا جزءاً من هذا الصراع نفسه، في الداخل بدأ يشعر أن الأرض التي تميد تحت أقدام أصحابه الموحدين تميد تحت قدميه، وفي الخارج كانت الأنياب المتحفزة لاقتسام بلادهم الأندلسية تتحفز بدورها لاختطاف جزره، بين نارين أحلاهما مر. وإذا كان المشكل الداخلي هين الأمر، يكفي فيه تشديد القبضة، فالبحر المفتوح من حوله لكل القوى العدوة هو الخطر الحقيقي، هو المدى المرعب. لا كافل لموجه والهدير. على صفحة هذا البحر كانت تسرح الأشرعة من قراصنة الأراغون، أقرب الأعداء إليه على البر الأسباني، ومن قراصنة الفرنجة والبيازنة والجنويين، وأهل البرانس. واستضعفوا الرجل فأضحى الأسطول المايورقي عرضه للهجمات، قطعوا عليه موارد الخشب من جزره، ثم لج العدوان فوصل القراصنة الأراغون لدرجة السطو على موانئ تلك الجزر. وأراد الرجل أن يظهر قوته البحرية، يرهب بها أعداء الله، فما أن علم ذات مرة بغارة بعض هؤلاء على جزيرته المسماة «يابسة» حتى بعث ابنه فسحقهم، وصادر سفنهم هناك على المرفأ.

وعلى طريقة الذئب والحمل في الحكاية المعروفة ضج أهل الأراغون وبكوا الأموال الضائعة، ووقف ملكهم الشاب خايمه الأول يعدهم

بالانتقام في حملة احتلال أسهموا فيها جميعاً. التجار والأمراء، الإقطاعيون ورجال الكنيسة وحتى الفلاحون تقاسموا سلفاً الغنائم والأراضي المقبلة. أبو يحيى كما سجل في تواريخهم ليس كافراً فقط، ولكنه قرصان ويجب تدمير وكر القرصنة في مايورقا. ١٥٥ سفينة أعدوا عدا السفن الصغيرة. ٣٦ ألف محارب جمعوا، الخريف من سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩)، كان في أوائله حين شهدت شواطئ مايورقا إقبال الأشرعة، عصائب طير تهتدي بعصائب نحو الشاطئ. أشرعة بيضاء تحمل آلاف الصدور السوداء.

أخبار الحملة واستعداد الملك خايمه الأول لها كانت قد ذاعت، وأبو يحيى كان قد أخذ الأهبة التي يستطيع لها. جمع ألفين من الفرسان و١٨ ألفاً من الجند، ونثر بعضهم على الساحل ينتظرون. وحين وصله النذير الأول من جنده يذكر أنه رأى ٤٠ شراعاً ثم لحق به نذير آخر يقول أنه عدّ ٧٠ أخرى. كان أبو يحيى يعالج المشكل الخطير الداخلي الذي تفجر فجأة أمامه في الأيام الأخيرة. في غمرة الاستعداد للحملة المقبلة كان أنصار الثائر ابن هود المعادون للحكم المرابطي قد تآمروا لإزاحة أبي يحيى، وقد قبض على أربعة منهم. بينهم، أبناء خاله، وقتلهم، فضج البلد ضده، وتنادوا للثأر منه. وكان قد جمع ٥٠ من أهل الوجاهة والنعمة أمامه ليؤدبهم حين وصله الفارس النذير وانقلب الأمر. عفا أبو يحيى عن الناس ودعاهم للجهاد فخرجوا وهم ينفضون غبار الموت ليستقبلوا موتاً آخر، المعارك الأولى التي انتصر فيها حماة الشواطئ لم تنفع في رد الحملة الكثيفة، التي ما لبثت أن ضربت الحصار على المدينة عاصمة الجزيرة. الملك خايمة كان يدّون يومياته يوماً بيوم. ولو قرأنا بعض تلك اليوميات لعرفنا أي قتال شرس كان حول تلك الأسوار التي تتمرى اليوم هادئة على تموجات السفن الصغيرة في الشاطئ. قصص الأشلاء، صرخات

الرعب والهول، رنين السيوف وهدير المجانيق تهدم ثم تهـدم دون طـائل. المعركة استمرت أكثر من شهرين، وبدأ الأمل بالخلاص يخبـو فانسـحب أبو حفص بن سيري أكبر زعماء البلد المتمردين على أبي يحيى وانحاز إلى الجبال الوعرة في غرب الجزيرة يقاتل. بينما كان أبو يحيى يحاول المفاوضة على التعويض أو على التسليم والأمـان أو علـى الجـلاء المسـالم. عروضـه كلها رغم السخاء لم تلق أي قبول. كان العطش الوحشي للـدم قـد بلـغ بالأراغونيين حد السعار. كانوا ينتظرون الدماء والغنائم، وقرر أبـو يحيـى ومن معه الدفاع حتى الموت، وحين عبر الأراغونيون باب المدينـة بـالجهد وعلـى الأشـلاء. كـانت، حتـى النسـاء، ترجـم الحجـارة مـن السـطوح. ووصل الملك خايمه أخيراً قصـر المدينـة ولكـن علـى جثـث ٢٤ ألفـاً مـن السكان قتلوا على دم واحد. الذين فروا إلى البراري ولجأوا إلى الكهوف، لاحقهـم المـوت، في كهـف واحـد عصـي لجـأ ثلاثـة آلاف بنسـائهم وأولادهم والأغنام. فسدوا عليهم الكهـف بالخشـب والشـجر وأحرقـوه ليختنقوا بالدخان. الذين انحازوا إلى الجبال مع ابن سيري سليل جبلة بـن الأيهم الغساني ظلوا سنتين يقاومون على الصخور الجرداء العصيبة وكان لهم هناك قضاؤهم وأنظمتهم وعصابـات الجهـاد. جـاهدوا وقـاتلوا قلعـة قلعة، وقلعة قلعة انتزعت منهم الجزيرة وصخرة صخرة. تشـبثوا بـالأرض حتى الموت وماتوا عليها أما أسراهم فوصلت أسـواق بيعهـم حتـى عكـا ودمشق والقاهرة والموصل والقيروان.

وتسألني عن أبي يحيى؟ أبو يحيى أخذ بأمر الملك الفاتح خايمه للعذاب ٤٥ يوماً احتمل العذاب. ومات تحـت العـذاب. هـذا المظلـوم الكبـير في النسيان. من ذا ينصفه يا ترى؟ من ذا ينصفه؟

كولومبوس التعيس

لست أذكر أين قرأت أو شهدت قصة ذلك الرجل الذي اكتشف كنزاً في بعض الكهوف، فعاد يخبر أهل القرية، وخرجوا معه جماعات، وما كادوا يستلمون مدخل الكهف حتى تدافعوا كالشياطين الجائعة، ركضوا اجتاحوا الرجل الذي سقط أمام التدافع وبين خفق النعال، وضربات الأرجل المسرعة، ضاعت صيحاته جحظت عيناه، وأسلم الروح، وبينما كانت الأرجل نفسها تذهب وتجيء وتصطدم به ويتصارع أصحابها على تقاسم الكنز، ما أبه أحد لكتلة الأشلاء والثياب المرمية عند المدخل، كان شيئاً من التراب والدم لا قيمة له. تخطر ببالي هذه القصة كلما تذكرت كريستوفر كولومبوس ومأساته الغريبة. إنه بدوره أحد المظلومين في التاريخ. صحيح أننا أنزلنا اسمه في الكتب مكتشفاً لأميركا، حتى كتب الأطفال تذكره. ولكن ماذا غير ذلك أخذ؟ حتى من التقدير والاحترام لا شيء أبداً.

قبل أن يتحول مشروعه إلى حقيقة، قبل أن يتمكن من رؤية أشرعته على صفحة بحر الظلمات، ماذا كان حظ كولومبوس، من هذا المشروع؟ ماذا جلب له؟ الفكرة كانت بالنسبة للناس فكرة جنونية، أن يذهب في البحر غرباً فيخرج من الشرق. ما هذا الجنون؟ إن أشفقوا عليه قالوا إنه يحلم منذ كان عمره ١٤ سنة. واشتغل مع قراصنة البحر. كان يتحدث

بهذا الحلم لم يكن يتحدث عن علم أو دراية. لم يكن يستند إلى خرائط أو دراسة رياضية، إنما كان حلماً، بمجرد نبوءة ومجموعة أوهام. وكبر، وكبر الحلم معه، حتى أضحى سخرية البحارة. وحين عرض فكرته على حكومة بلدة جنوه تلقته بالهزء الساحق والضحك ملء الأفواه. فترك البلد إلى غير رجعة، نسيه تماماً، حارب ضده مرة على إحدى السفن البرتغالية التي احترقت وكاد يغرق، غير اسمه كله، أضرب عن الكتابة والكلام بالإيطالية. وقصد البرتغال.

البرتغال كانت يومذاك بلد المغامرين في البحار، الموج كان يرقص للناس هناك، ويغني، وحين أتيح لكولومبوس أن يعرض مشروعه على ملك البرتغال لم يجد لديه أي صدى، كالنار تسقط في المستنقع فلا تخلف سوى بعض الهسيس والدخان، كذلك سقط مشروعه لدى الملك. ولكن كولومبوس كان من الهوس بالفكرة بحيث دفعه الفشل بدلاً من اليأس إلى التصعيد والتأليه.

آمن أنه المندوب من القدرة الإلهية للمهمة الموعودة، للوصول إلى جزائر البحر تلك المذكورة في التوراة. لا تدري كيف آمن بذلك، ولكنه آمن. المشروع كان مجال فخره والسخر في وقت معاً. مقابل التحقير كان يلجأ إلى وهم التقديس، وحين تزوج اشترط على زوجته أن تحتمل فكرته العبقرية الجنونية هذه. وكم تعبت في مداراتها ومداراته حتى ماتت.

وسعى كولومبوس إلى لقاء ملكي أسبانيا الزوجين فيرديناند وإيزابيلا، وهما يحاصران غرناطة. وعرض على الملكة مشروعه، خريطته التي بسطها أمامها لم تقنعها ولم تقنع رجال البلاط الذين ظلت لجنتهم تدرس المشروع سنوات دون جواب. إيمانه فقط جعل الملكة تمنحه راتباً يعيش

منه، ثم تخلت عنه بعد سنتين ليعرف الجوع، والمرض، والتضور، والتسكع دون هدف في الحانات. حتى ابنه أودعه في بعض الأديرة. النقرس كاد يسحقه، فتهدم جسمه وشاب شعره ولم يكن في المطر يخرج من البيت، لئلا ينفذ المطر إلى جسمه وحذائه. ظل أربع سنوات بعد ذلك يطوف من مدينة إلى أخرى وراء الأمراء لعلهم ولعل، ولم يصل معهم إلى شيء، وأرسل أخاه البارع في رسم الخرائط إلى ملك فرنسا وإلى ملك إنكلترا. واعتذر الأول والثاني كما اعتذر من قبلهم السابقون، وعاد الرجل بخفي حنين. عشرون سنة ظل كولومبوس يسعى فلا يحصد إلا التهزؤ والفقر، وإن كسب المزيد من الخبرة في الملاحة ومن الحجج والمعلومات المؤيدة للحلم، ولكن الحلم ظل حلماً. وذات يوم وعده راهب الدير الذي يأوي ابنه أن يسعى له في مقابلة الملكة إيزابيلا مرة أخرى. وفي اللقاء وافقت الملكة على المشروع ودون أن تنبض أسارير كولومبوس بأي فرح أو امتنان، انتقل إلى الثمن قال: «شروطي أن اسمى أميراً للبحار ونائباً للملك في الأرض التي سوف أصلها. وأن يكون لي عشر الموارد والثروات».

وصعقت الملكة لوقاحته وصرفته، صرفته ليعاود الطواف على بغلته لعله يجد من يشتري المشروع. وتدخل بعض رجال البلاط لدى الملك والملكة، قالوا: لن نخسر الكثير، البحارة نأخذهم من المتطوعين والأسرى والسجناء. وثلاث سفن ليست شيئاً كثيراً مقابل ما قد يأتي من الثروة لو تحقق المشروع. فلم لا نلحق الفكرة المجنونة؟ واستدعي كولومبوس من جديد إلى البلاط ومنح لمشروعه خمسة آلاف جنيه. خمسة آلاف جنيه كانت ثمن القارة الأميركية كلها. وثمن الذهب الذي تدفق بعد ذلك على اسبانيا وأوروبا أكثر من قرنين وأعطاهما ملك العالم الجديد.

وفي العاشر من شباط من سنة ١٤٩٢ أبحر كولومبوس في بحر الظلمات بثلاث سفن و ١٠٤ رجال. الخطوة الأولى من مشروع كولومبوس تحققت ولكن هل نجح حقاً؟ لقد وصل الامتحان الصعب، لقد أبحر بين شدقي تنين أزرق لا يعرف مداه إلا الله. كل قلق الدنيا كان مصبوباً في أعصابه المحروقة. كل توق السنوات العشرين السابقة يجد امتحانه الأخير في هذه الأيام الصعبة التي امتدت ٧٠ يوماً وأمامه لا شيء إلا الماء اللانهائي والسماء اللانهائية ورصيد عريق من الأوهام المرعبة عما وراء المحيط. وشعلة أمل بجمع كنوز الذهب والماس والجوهر من أرض الصين والهند. كان هذا كله قبل أن يصل إلى البر الآخر الذي حسبه الهند، وبعد أن وصل كولومبوس واكتشف ماذا كسب؟ صحيح أنه عاد من رحلته الأولى فاستقبل الاستقبال الخرافي، لبس ملابس أمير البحر ونائب الملك وجلس بجانب الملك والملكة وخيل إليه أنه انتقم للسنوات العشرين السابقة من السحر والتهكم والفقر. ولكن هذا كان مكافأته الوحيدة والأخيرة لم يكن بإمكان كولومبوس أن يحتكر البلاد الجديدة المكتشفة والبحر مفتوح الصدر لجميع الأشرعة والمغامرين ولم تعترضه صعوبة مرعبة تقطع طمع الناس في تقليده. هل فعلت إلا أنك سرت غرباً غرباً حتى وصلت؟ كذلك قالوا له في لهجة هي بين الحسد والاستهانة، ومن ذا الذي لا يستطيع أن يفعل ذلك، بعد الرحلة الأولى كل رحلة أصبحت سهلة مغرية وممكنة ولا تحتاج لأكثر من الإبحار على الشراع.

قام كولومبوس بعد رحلته الأولى برحلات ثلاث فقط إلى الأرض الجديدة ولكن ملكي اسبانيا لم يقوما بالعهود التي أعطياها له. وكيف يتنازلان له عن عشر الموارد والأرض والثروات والرقيق. وما لبث كولومبوس أن فوجئ في رحلته الثالثة هناك بتعيين حاكم باسم الملك

بدلاً عنه. فلما اصطدم به وصفعه أصدر الحاكم أمراً بالقبض عليه وسيق من الأرض الجديدة إلى أسبانيا بالسلاسل. وما أن علم الملكان بالأمر حتى أمرا بفك قيوده وهو في ميناء الوصول لكنه أصر أن يمشي في الشوارع بتلك القيود حتى بكى له الناس وفكوها بأنفسهم. وخصص الملكان له معاشاً سنوياً ما لبث أن أنقطع حين ماتت الملكة. وماذا بعد ذلك؟ عاد كولومبوس إلى مصارعة المرض والفقر والنسيان، كان يكتب مذكرة بعد المذكرة إلى الملك يطالب بحقه، برأسماله من الشرف، وبحكم بلاد الهند الشرقية وبعشر وارداتها، وتنام المذكرات في سلال المهملات بينما كان المغامرون الآخرون من كل الملل ينهبون البلاد المستباحة بنهم الجياع آلاف الأعوام. حتى البلاد التي اكتشف لم تسم باسمه، أعطيت اسم غيره فهي بلاد أميركو فسبوتشي لا بلاد كولومبوس ولقد مات في الإهمال المطلق بعد سنتين فقط من رحلته الأخيرة لا يدري به أحد، مات أيضاً، وهو لا يعلم أنه اكتشف أميركا والناس زحف الجراد إليها وإلى ذهبها، أليس كولومبوس بالمظلوم أليس بعاثر الحظ يا ترى؟

المستعصم آخر العباسيين

المغول، التتر، جنكيز خان، أسماء تهجم على الألسنة كلما جاء ذكر الدماء، أنها تمشي في التاريخ في مواكب من الجماجم. صورتها لدينا، عيون صغيرة مائلة وخدود ناتئة وشارب مرسل وشعر أشعث، وزعيق يبدأ في الصين لينطح جبال الشام، وخبب من الحوافر تحسبه خبب الأبالسة الزرق. كان شعب يأجوج ومأجوج دوماً ذا صورة شيطانية لدى المسلمين. هم مفسدون في الأرض، وسد من ذوب الحديد أقيم دونهم. وفي مطالع القرن السابع للهجرة توحدت صورتهم مع صورة المغول لدى أهل هذا الشرق الإسلامي كله حتى حسب الناس أن السد انهار وفتحت يأجوج ومأجوج فروجه فهم من كل حدب ينسلون. الطوفان البشري المرعب، الذي تدفق من صحارى منغوليا على الدنيا إلى قلب سبعة قرون، لم يترك شعباً ما بين الصين إلى الهند إلى قلب أوروبا إلا داسه بالسنابك. وفي سنة ٦٠٣ يوم تجمع زعماء المغول وقام سبعة من خاقاناتهم فرفعوا زعيمهم المدعو تيموجين إلى عرش عال وانحنوا على ركبهم أمامه تسع مرات ولقبوه جنكيزخان، أي ملك العالم، كانوا في الواقع يقررون مصير العالم. كانوا يريدون حكم العالم، لم تمض ٥٠ سنة على هذا التتويج حتى كانت إمبراطورية المغول تشمل الصين وصحارى المغول وآسيا الوسطى وإيران حتى أطراف الهند والقفقاس وآسيا

الصغرى كما تشمل روسيا وبولونيا وأواسط أوروبا. كانت أوسع إمبراطورية عرفها العالم على الإطلاق. الجناح الغربي من هذه الإمبراطورية، الذي يشمل الشرق الاسلامي كله والسهول الاوروبية كلها، منحه الخاقان الأكبر منغوخان لسيف شقيقه هولاكو، مع جيش من ربع مليون فارس كالجان لم يجتمع مثله لقائد من قبل.

من خلال هذه الإمبراطورية وبهذه القوى خرج هولاكو، سنة ٦٥١ هـ من قرقوم عاصمة المغول المتفردة كالوحش الذهبي، في الصحارى نحو بغداد والخلافة العباسية. ووقعت الواقعة التي نعرف. انهارت بغداد تحت المجانيق والسنابك وسقطت الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨/٦٥٦ المسلمون في ذلك العصر أمراؤهم والبسطاء مزقهم الروع والألم، تبادلوا تهم التقصير والخيانة والبكاء فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون... من المسؤول؟ كان لا بد للكارثة من ضحية تحمل الأوزار. الخليفة كان في تلك الأيام رمز الدين، كان عنفوانه، كان قدسيته، جزءاً من الإيمان بثبات العالم وتفوق الإسلام، فكيف سقط؟ كيف ديس بالأرجل الوثنية حتى الموت، لم تطلع الشمس من مغربها؟ وألقي في قفص الاتهام اثنان: الخليفة المستعصم نفسه بوصفه اللاهي المهمل والوزير ابن العلقمي الخائن، وسجلت القضية ضد هذين المظلومين، لينفض الباقون أيديهم من مسؤولية الانهيار والكارثة والعقاب. ذكروا أن الخليفة المستعصم كان شديد البخل حتى لقد حاسب ضيفه الملك الناصر الأيوبي على ما أنفق عليه من خبز ولحم. وحتى جنوده قطع عنهم الأرزاق والمغول قادمون. فبعض من جنده ركب المطايا إلى غيره في الشام، وبعض إلى العدو، وبعض بقي يتسول في الجوامع والأسواق ليعيش. ويقولون أن هولاكو بعد أن سجن الخليفة وشهد ما لديه من

الجواهر والفضة والثروة، وبعد أن وجد لديه حوضاً مملوءاً بسبائك الذهب في باحة القصر، كل سبيكة مئة مثقال، جاء به وعنفه أشد التعنيف على أنه لم ينفق ذلك في جيش يحميه ويمنعه فقال المستعصم: «ذلك تقدير الله». فقال هولاكو: «وما سيجري عليك أيضاً سيكون بتقديره».

وأمر الحراس أن يقدموا له بدل الطعام طبقاً مليئاً بالذهب، فلما قال: «كيف أكل الذهب؟» قال له هولاكو: «إذا كنت تعرف أنه لا يؤكل، فلماذا لم تفرقه في عسكرك وأعوانك، لتفدي نفسك وتحفظ ملكك؟».

وذكروا عن الخليفة المستعصم أيضاً أنه كلما نصحه الناصحون ونبهوه إلى الخطر الداهم كالتنين الوحشي قال: إن بغداد تكفيني ولا يستكثرونها علي إذا تنازلت لهم عن باقي البلاد. وذكروا عن هذا الخليفة الأخير أنه كان مستضعف الرأي ضعيف التدبير غير واع للخطر، ترددت الرسل بينه وبين هولاكو قبل سقوط بغداد، فكان يحاول دفعه بالأوهام، يهدد المغولي الزاحف بملوك الأرض الذين سوف يهبون من الشرق والغرب للدفاع عند أول إشارة منه، ويهدده بقدسية الخلافة التي ما ابتغى الشر لها أحد إلا هزم ودمره الله. ويسجلون على هذا الخليفة أخيراً أنه كان للنساء والطرب لا يسمع بمغن إلا بعث يطلبه من بلده. ذات يوم كتب إلى بارز الدين لؤلؤ صاحب الموصل يطلب منه جماعة من المطربين. ووصل إلى هذا الأمير في اليوم نفسه كتاب من المغول يطلبون فيه معونتهم بالمنجنيقات وآلات الحصار، فقال لؤلؤ لأصحابه: «انظروا إلى المطلوبين وابكوا على إسلام وأهله». وأخيراً يذكرون أن الوزير ابن العلقمي بسبب نقمته على قائد الجيش العباسي كان يكاتب المغول ويستدعيهم لاحتلال بغداد ونكبة الخلافة. ويروون أنه جاء بأحد

مماليكه، فحلق رأسه بالموس وكتب عليه رسالته إلى المغولي القادم وانتظر حتى نبت الشعر فأطلقه إليه. وقرأ هولاكو الرسالة ثم قتل المملوك. ففي آخر الرسالة كتب ابن العلقمي «اقطعوا الورقة». وهكذا انتهت بغداد إلى الكارثة. تحولت في أيام من سنة ٦٥٦ إلى دور مهدمة وحرائق لاهبة وإلى قتلى كالتلول في الطرقات، تحت المطر أو في السراديب والقنوات والآبار، حتى نتن الهواء فلا يمر بأزقتها إلا وفي يده بصلة يستعيذ بها من الريح. أما الخليفة فلأن دم الملوك حسب طقوس المغولية لا يجوز أن ينزل الأرض فقد وضع في كيس وما زال يضرب بالأرجل حتى لفظ الأنفاس.

هذه الصور تصلح للعبرة وللقصص وقد يكون فيها الكثير من الحقيقة، ولكن هل هي كل الحقيقة؟ باقي الحقيقة، لو عرفنا الباقي قد يرفع الظلم الكثير عن المستعصم القتيل وصاحبه. فالخلافة العباسية لم تكن يومذاك أكثر من إمارة صغيرة تشمل فقط نصف العراق اليوم، كانت اسماً ضخماً على بضعة أشبار من الأرض والموارد فكيف لها أن تقف لإمبراطورية الدنيا المغولية وحدها ولمواردها وجيوشها؟ ولقد كان يخطب للخليفة على المنابر في كل بلد، ولكن كان لكل بلد أميره الذي لا يأبه إلا لبلده وأرضه. الشرق الإسلامي كان عشرات من الإمارات والسلاطين، ظل الخطر المغولي يهددها ٤٠ سنة فما تحركت خطوة لتكوين حلف بينها. فراغ عسكري كبير كان هذا الشرق. بل، كثير من الحكام عفروا الوجوه بالتراب وهم يتعاهدون على التوحد في وجه المغول ولكن لم يزيدوا على التعفر خطوة، لم يجمعوا جندياً إلى جندي حتى عفرت كراماتهم وجثثهم في التراب. وبعض حكام المسلمين في الموصل والجزيرة والشام هادنوا المغول رعباً وهلعاً، عاونوهم بآلات الحرب، سعدوا أن يتلقوا منهم «البايزة» تلك الصفيحة الذهبية التي تحمل صورة

أسد وينقش عليها الخاقان أمره بتوليتهم السلطة في بلادهم. ولم تكن النوايا المغولية بالخافيه على الخلفاء في بغداد ولا بالمفاجئة. ١٣ هجمة هجم المغول عليهم خلال ٤٠ سنة ملأوا بالجثث والدماء مدى المشرق كله فما تحرك أباء وأجداد المستعصم، ولا تذكروا الأمر الإلهي ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ كل ما فعله جند المستعصم أنه أمر بالقنوت في الصلاة وقد ظل جيش هولاكو يسير نحو بغداد على مهل ست سنوات، نظف أمامه الطرق، نصب الجسور، شتّى وصيّف. جمع آلة الحرب وكل الشرق الإسلامي مبهوت، مشلول الإرادة، ينتظر المصير المحتوم. الجبال كانت تهتز لمسيرة الجيش المغولي والملوك ترتجف منها العظام، وكل يظن أنه بعيد عن الخطر الكاسح أو أنه إذا هادن المغوليين وسالمهم نجا، والسيل هو السيل يكتسح الأخضر واليابس. ولم يكن المغول بحاجة إلى ابن العلقمي ولا إلى استدعائه لهم ولا إلى رسائله. كان أمر الخاقان الأعظم منغوخان قد صدر منذ سنة ٦٥١ بالمسير لأخذ العراق والشام ومصر. وكان المغول قد ساروا وسيروا جواسيسهم في كل مكان وكانوا يعرفون أن بغداد الخلافة ليست أكثر من عصفور يلعبون به. يعرفون مدى ضعف الجناح الذي تسقط بمنازعاتها الطائفية، وفتن الأحياء فيها، وانتشار اللصوص، وتفشي الجوع، وهرب الجند، وتراكم اللاجئين، وتكاثر الشطار.

وبالفيضانات التي دمرتها مع إهمال نظام الري وتناحر رجال الحكم حتى أيام الحصار، ومع كل أولئك فقد قاتل جيش الخلافة، قاتل حتى الجندي الأخير. هل كان باستطاعة المستعصم وحده تغيير هذا المصير وهو جزء منه؟ أليسوا يظلمونه وهم يحملونه وحده أوزاراً كانت أوسع بكثير

من أكتافه؟ العصر كله كان عصر انهيار وتخاذل. ولهـذا سـقطت بغـداد.
وما أشبه الليلة بالبارحة!

الحاكم بأمر الله بين التأله والجنون

في التاريخ شخصيات شتى تلفعت بالضباب والغموض أو أضحت أساطير، أساطير فما تكاد تستبين لها حقيقة في الظلام، وفي التاريخ أسماء عديدة اختلف فيها الناس، فهي على أرجوحة الأهواء بين الكره الأسود وبين أقدس الحب. وفي التاريخ رجال كانوا قضايا، عقدا محيرة من الدماء، ومن غريب الأعمال فوراءهم خط طويل من إشارات الاستفهام، وبهلوانيات الجدل والتفسير. أما أن يجتمع ذلك كله في رجل واحد ويكون ذلك الرجل خليفة معروفاً، عاش بين ألوف الخدم وعيون الملايين من الرعية خلال حكم دام ربع قرن وأن يصل به قوم إلى الألوهية، بينما يسلكه آخرون في زمرة المجانين. وأن يحتار الناس في التوفيق بين طغيانه الدموي ورقة قلبه. وبين جبروته وزهده المسكين، وأن يترك بين هذا وذاك فرقة مؤمنة به إلى اليوم بعد عشرة قرون. أما هذا كله فلم يجتمع، فيما أعرف، إلا للخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله. هذا الخليفة مر في الدنيا مسرعاً جداً. ٣٧ سنة كان كل عمره، ومع ذلك فقد جمع في أهابه في السير المعروفة له بين الناس سيف جنكيز الظامئ وشيطانية نيرون الذي أحرق روما وهو يغني على القيثار، وزهد ألف زاهد يبكون خشوعاً في البيع، وأعداؤه، لا تسأل عن أعدائه، صفحته سوداء لدى المسلمين.

وصحاب دعوته الحاكمية المؤمنون به يقرون بأنه ارتكب أفعالاً مظلمة تحير العقول. النصارى بدورهم كانوا يندون باضطراب رأيه وأوامره. الكل يجمعون على وصفه بالطغيان. كان طاغية من الطغاة لا يكاد يعرف أحد متى تقع شفرة سيفه في عنقه. الأقربون والأبعدون كانوا يعيشون على حد هذا السيف، حتى العامة. كان أحياناً يقف في السوق، وما أكثر ما كان يقف، فيأخذ أحد الركابية معه فيذبحه بنفسه وينثر أمعاءه ثم ينصرف، ليبعث إليه بالأكفان، الإرهاب جعل الناس كالشموع طوع بنانه، بلغ الرعب والروع في الناس أنهم تسامعوا مرة بحفرة هائلة يحفرها في الجبل، فلم تبق طائفة إلا ظنت أنها إنما تعد لإعدامها. وذهبت الطوائف والجماعات تتضرع، وتبكي، تقبل الأرض أمام قصره، تطلب الغفران والأمان. ولم تهدأ الخواطر حتى صدر عن صاحب القصر أكثر من ١٠٠ كتاب بالأمان تؤمنهم جماعة، جماعة. ويحكون عنه بعد هذا غريب المتناقضات. سفكه الدموي يضم أكثر من ٥٠ من كبار رجال الدولة. كبار الكبار قتلهم بعد أن منحهم كل الثقة والقوة. وكان السيف يأخذهم دوماً بغتة. وبعضهم ذبح ولما تمض خمسة أيام على تعيينه. أمر بأن يكتب سب الصحابة في الجوامع ويتلى على المنابر. وعاقب الرافضين بالقتل، ثم عاد فأمر بمحو ذلك كله وبمنعه وحين عثر على من يسب قتله.

رسم بهدم الكنائس والبيع، فأخذت المعاول الكثير منها في مصر وفي الشام. ثم عاد فأمر ببنائها وترميم ما تصدع منها، كان التنجيم من هواياته. أقام على المقطم منزلاً لرصد النجوم كان يخلو به الليل للرصد والغيب. وكان الفلكيون والمنجمون يحظون بعطاياه ورعايته سنين. ثم انقلب عليهم. فحرَّم صناعة التنجيم وأمر بنفي المنجمين من البلاد ولم

يرفع عنهم المنفى إلا حين استتابهم قاضي القضاة وكتب عليهم عهد التوبة. وكذلك تاب المطربون والمغنون، جاء وقت منع فيه من العمل في النهار فالأسواق والأعمال تكون بالليل وعلى الناس أن يوقدوا الشموع والأسرجة على كل بيت، ودكان حتى غدت القاهرة شعلة في الليالي. ثم عاد عن ذلك فمنع العمل وحتى الخروج في الليل. فكانت المدينة بعد غياب الشمس تعود إلى صمت القبور. وأمر بقتل الكلاب فخرس النباح من كل فج. ومنع الحاكم بأمر الله بعض المآكل. بلى فالملوخية والترمس والجرجير والمتوكليه وبعض السمك حرام على الناس. ومنع بعض الألعاب، فالشطرنج ممنوع وإلا فالجلد والتشهير والإعدام. وكانت النساء مشكلة عند هذا الخليفة. حرم عليهن حضور الاحتفالات ثم كشف الوجوه في الطريق أو خلف الجنائز، ثم حرم عليهن الزينة والتبرج، ثم حرم خروجهن من البيوت أبداً، فلا يخرجن إلا لبيوت أزواجهن أو إلى القبر، ومنع الحذائين من عمل الأحذية النسائية أبداً، بل منع النساء من التطلع من النوافذ. السنوات السبع الأخيرة من خلافة الحاكم كانت سجن النساء. الباعة على الأبواب كانوا يبيعونهن بواسطة أداة كالمغرفة لها ساعد طويل يحمل إليهن البضاعة وراء الأبواب ويحمل إلى البائعين الثمن. هل أزيدكم بعد هذا من هذا الحديث؟ ثمة المزيد منه.

على أن الذين يرون أن الحاكم بأمر الله مظلوم في هذه الصورة التناقضية ليسوا بالقلائل. أنهم لا ينكرون حقيقتها، إنها من صميم أعمال الرجل، ولكنها تظلمه أبشع الظلم حين توضع خارج إطارها الإصلاحي. الحاكم بأمر الله في الصورة الأخرى له، مصلح اجتماعي، ديني كبير. مصلح على طريقته الصلبة الجذرية ولكل أمر من أوامره سببه وتعليله وهدفه، ليست نزوات مخبول، ولا أهواء شرس غدار فاقد

للاتزان، ولكنه سيف الإصلاح ذلك، فالسارج لهذه الدولة دعاه إلى تطهيرها بالسيف، وأما سب الصحابة فكان في تقاليد الدعوة الفاطمية، فلما رأى خطأه تراجع عنه، وأهل الذمة تسلطوا على البلد وتآمروا فهدم معاقلهم الدينية. ولما أنابوا بناها لهم، وقد تمادى المنجمون في اللعب بعقول الناس وكثر اللهو والشراب فحرم ذلك. وقد دعته حرارة جو مصر إلى العمل بالليل فلما رأى في ذلك مفسدة ونفقة زائدة عاد عنه وأما المآكل فكان منعها حفظاً لصحة الناس ولما أورثت من الأمراض. وأما قصة النساء فإن ما اعترى المجتمع في عهده من الفساد والاستهتار لم يكن له من حل حاسم سوى ذاك. آخر الدواء الكي، ولا حسم للغواية إلا بالسجن. ويضيف المدافعون عن هذا الخليفة أننا ننسى للحاكم بأمر الله وجهه الآخر وجه التقوى والعدل والدين الرائع، فهو أولاً كان الأب الراعي لرعيته ما عرف التاريخ خليفة مثله. يركب يومياً لتفقد أحوال الرعية للاتصال بها والوقوف مع هذا والحديث مع ذاك. ويجتمع حول البسطاء ويمازحهم ويتسلم رقاع التظلم بنفسه ويغدق على الناس من العطايا الكثير الكثير، ولم تمتد يده أبداً إلى أخذ مال أحد من الناس حتى من المغضوب عليهم وقد ألغى جميع الضرائب والمكوس في أيام الأزمات والشدة.

مؤرخ معاصر من أعدائه قال عنه: أنه أظهر من العدل ما لم يسمع به. وما زال أهل مملكته آمنين على أموالهم غير مطمئنين على نفوسهم. بل أعاد الأموال التي كان صادرها أجداده إلى أصحابها. وهو ثانياً كان يكره البذخ والمواكب الفخمة ودنيا الذهب والجوهر والرفاه. كان التواضع كله والتقشف كله. يركب الحمار بدل الخيل المسومة، ويخرج مع ركابي واحد بدل الموكب الفخم ويضع خرقة عادية على رأسه بدل

عمائم الحرير والزمرد. ولا ينزع جبته السوداء الصوفية حتى تأكلها الرتابة، وقد ألغى ما كان يخاطب به آباؤه من الألقاب واكتفي بأمير المؤمنين ومنع ما على بابه من الطبول والأبواق. زهد في الدنيا دنيا الناس ولا زهد العُمرين. وألف الليل، شغف في الليل فهو يجلس الأيام الطويلة في الشموع وفي الظلمة يتأمل ويفكر والحاكم بأمر الله ثالثاً قد منع الخمر من بلاده. اقتلعها من أساسها لم يمنع عملها فقط ولكنه اقتلع حتى الكروم ومنع بيع العنب ورمى الزبيب تحت أقدام البقر وألقى آلاف جرار العسل في النيل وكسر أوعية النبيذ وأراقه. وقتل على شرب الفُقاع. ومقابل ذلك بنى الكثير من المساجد ورمم الكثير، وأوقف الأوقاف على مالا أوقاف له منها. أليس في هذا كله ما يشهد بظلم التاريخ والناس له؟ بلى، وقد يكون، لكن المشكلة التي سحقت الحاكم بأمر الله والتي أعطته الشخصية الشيطانية رمته في دنيا الجنون هي التأله. الدعاية الألوهية. هذه الدعوة وحدها تكفي لتسلكه في الهالكين وفي المجانين فبماذا يدفع الدافعون هذا عنه؟ المدافعون ينفون عنه هذه الدعوة كل النفي يقولون أنها من انحراف بعض دعاته وقد أتى عليهم بالسيف وهي من تهم الأعداء. وإنما دعا الحاكم إلى التوحيد أنشأ فرقة دينية لمذهب التوحيد هي الفرقة الحاكمية. التي لا تزال إلى اليوم على العهد. إن صح هذا وصحت التفاسير للأعمال المتناقضة كان الرجل مظلوماً أشد الظلم ولكن متى تصح؟ ومن يصحح. سيظل الرجل على الصراط بين المظلوم والظالم إلى أن ...سيظل شخصية مثيرة للفضول والجدل ويظل علامة استفهام كبيرة يظل غموضاً يتحدى إلى أن ... كل ما نملكه فيه الآن كلمتان: الله أعلم.

أتاهوالبا ملك الأنكا الأخير

مرة أخرى أعود إلى الحديث عن الهنود الحمر، أهل الريش والجسد النحاسي. هذا الحديث يأسرني، يسكن عروقي، يشجيني. لعل ذلك لأنه يحك جراحي. لأني أرى فيه إسقاطاً لما يجري بأهلي وبلادي. أنا فيه بائع الأحزان الذي لا يعرف لمن يبيع حزنه.

الحديث هذه المرة عن شعب مظلوم آخر من أولئك الهنود، شعب الأنكا. على امتداد خمسة آلاف كيلومتر ومساحة مليون كيلومتر مربع، كانت تمتد أراضي هذا الشعب في غرب أميركا اللاتينية، تنحدر من قمم جبال الآند العاصفة بالثلوج الدائمة، والزمهرير إلى شواطئ المحيط الهادي. الخضم اللانهائي الذي يغطي ثلثي الكرة الأرضية. وفيما بين الشواطئ والقمم تزحف الصخور الحادة كأنها أرض الجان، أو أنياب تنين خرافي يبتلع العالم. حتى تبلغ أربعة، أو خمسة أو ستة آلاف متر في الارتفاع هناك في زعمهم مأوى الأرواح ولا يقترب الإنسان.

وإذا كانت الثلوج تنداح في إحدى الهضاب الشاهقة لتشكل أعلى مسطح مائي على الأرض، بحيرة «تيتي كاكا» المقدسة ذات الجزيرة الإلهية والتي كانت تتقبل الضحايا البشرية عند شروق الشمس، فإن الثلوج تنهار على الصخور العارية لتمنحها الغابة الكثيفة السواد تارة أو لتقطعها تارة أخرى بالمهاوي الخرساء والأوعار والأخاديد. يجري في

أعماقها الذي يسمونه أنهاراً وماء. ليس ثمة من سهول واسعة، شعب الأنكا كان يتعامل مع الصخور المردة، ينحت عليها معابده ذات الأدراج الحجرية تحسبها تود الصعود إلى السماء. كما يسوي عليها مدارجه الزراعية شرفة بعد شرفة حتى الأعماق، ويمد بينها أقنية الماء مئات الأميال. حضارة هذا الشعب كانت تقوم على الذرة في الطعام وعلى القطن، وعلى حيوان الباما الذي يشبه الجمل في الرأس والعنق والوبر، والحمار في الحجم للنقل ونسيج الوبر.

وكان شعب الأنكا يصوغ الذهب الكثير عنده والفضة أروع الصوغ. حتى ليصنع منها الأطباق وأدوات الأكل والجلوس وزينة الجدران والصدور. أما في البناء فيا لروعة الأبنية، أقامها الأنكا من الصخر النحيت. كل حجر في كيانها خمسة أو ستة أمتار ملأوا بها البلاد قصوراً ملكية باذخة، ومعابد ذهبية الجدران، وأضرحة ممردة، وشوارع كأنما رسمت بالقلم، وقلاعاً أعاليها ترعب الطير، وربطوا البلاد بعد هذا بشبكة من الطرق تخرقها بين شمال وجنوب وواد وجبل. كانت تزيد على ٢٥ ألف كيلومتر، وجسورها المعلقة من الخشب والحبال تسبح أحياناً ٦٠ متراً فوق رعب الوديان السحيقة.

وللأنكا طبهم وعملياتهم الجراحية الخطرة. ولهم الفنون والرسم والخزف والنحت والتزيين... ولهم...ولهم. على أن نظام الدولة كان أعجب ما أبتكر هذا الشعب. كانت الدولة استبدادية، السلطان الوحيد فيها هو السابا، الملك، بلى! ولكنها كانت دولة الخدمات الاجتماعية الكاملة. كل الثروات والإنتاج ملك للدولة. بلى، ولكن لم يكن أحد يحتاج شيئاً. لا غني ولا فقير، لأن على الدولة إعطاء كل فرد ما يكفيه من الطعام واللباس والمسكن الحسن. لكل فرد حصته الوافية من كل

شيء. وفي الأزمات عليها أن تحميه، وأراضي الأنكا ثلاثة أقسام يعمل بها الجميع: الأول للإله والكهان، أقراص الذهب والفضة في المعابد تمثل الشمس والقمر، وتبتلع هذا القسم. أما الثاني فللملك والجيش والحكومة. أما الثالث فللناس كل ثروة لدى الأنكا من الذهب إلى الذرة إلى وبر الباما كانت تقسم هذه الأقسام الثلاثة.

هذا الشعب ذو الأجساد الحجرية والوجوه الصلدة المحرومة من اللحى والشديد الذعر من مظاهر الشؤم كان من سوء حظه، أنه في الوقت الذي كانت القوى الاسبانية تهيئ للحملة عليه كان يعاني من سلسلة من النكبات، الزلازل ضربت مدنه فوق رؤوس أصحابها. الشائعات ركضت بأن القمر الإله الأم ظهر بثلاث هالات إحداها حمراء فآمن الجميع بقرب الدمار. السابا الملك الأعظم، كان في حرب أهلية مع أخيه انتهت بانتصار هذا الأخ الشاب أتاهوالبا، ولكن بعد أن ضاعت في الوديان آلاف الأشلاء والقوى، وكان أتاهوالبا هو السابا الثالث عشر. وحين وصلت الحملة الأسبانية الغازية شواطئ الأنكا وصعد فرسانها ذوو اللحى الطويلة في الدروب الجبلية، كان الهنود يفرون منها فزعين. تراكضت الأخبار إلى السابا أتاهوالبا. لقد جاء الرجال البيض ذوو اللحى، أسياد الثور على وحشهم اللامع ذي الأرجل الأربع.

كانت الصورة قديماً لدى الأنكا تنذر بوصول أسياد النور ذوي اللحى ذات يوم، أما الوحش فكان هو الفزع. وما هو سوى الحصان الذي كانت صخور البلاد تحس لأول مرة قرع حوافره. حسبوه مع فارسه مخلوقاً واحداً غريباً، جلده اللامع هو تلك الدروع الحديدية السابغة، حين كان يصهل أو ينفخ من منخريه كانوا يرتعدون في المخابئ، لم يعودوا يستطيعون القتال. شلت شجاعتهم أمامه. الصدمة

كانت سيكولوجية بقدر ما كانت مادية، حتى حين عرفوا أن الفارس والفرس مخلوقان اثنان لا واحد ظل الحصان فترة طويلة فزعاً، رعباً مثيراً، كائناً خارقاً يتجنبونه ويخطبون وده ويتفادون غضبه بالهدايا وبالطعام الإنساني الذي لا يستطيع تناوله.

الحملة التي وصلت بلاد البيرو، بلاد الأنكا، كانت لا تزيد على مائتي فارس يقودهم سفاح من الجبارين اسمه فرانسيسكوبيسارو. ٥٠٠ كيلومتر ظل يزحف على الشعاب الملتوية الوعرة حتى وصل الهضاب العليا للأنكا، وصل إحدى مدنهم الكبرى «كاخاماركا»، ولكنه مع حملته كان يسحقهم الإجهاد. دروعهم الثقيلة قد أرهقتهم حملاً، المرتفعات ضربتهم بالدوار. البرد الشديد خدر أطرافهم. والأرض حولهم بدت كما لو كان لها أربعة أبعاد. كان منظر العالم الذي يرونه غريباً كما لو كانوا يجولون فوق كوكب آخر. لكن أعينهم كانت تبحث في قلق في كل الاتجاهات عن شيء واحد. تبحث عن الذهب. هذه الكلمة السحرية كانت هي التي تجرهم في الدروب، تنعش قواهم كلما أصابها الإعياء والخوار واليأس. تلتمع أمامهم في إغراء ألف غانية. كانوا قد سمعوا عن ذهب الأنكا، الأخيلة التي لا تصدق عن القصور المبنية لبنة من الفضة ولبنة من الذهب. عن الزمرد كالحصى. عن المعدن الأصفر الثمين يسيل بين الأيدي ويكنس في الطرقات، وحين وصلوا أخيراً إلى «كاخاماركا»، كان السابا أتاهوالبا قد سبقهم في الوصول إليها. كان الذهول لا يزال يأخذ بيسارو وفرسانه، وعيونهم التي تلتهم الذهب والفضة هنا وهناك حين وصل الملك. ما كان أتاهوالبا يظنهم أعداء وإن لم يطل الوقت به لمعرفة هذه الحقيقة. لقد استقبلهم في ساحة البلد المربعة. جاء في موكب يتقدمه ألف من الأمراء والمغنين والراقصين ويحمل

المحفة له اثنا عشر رجلاً، لكن بيسارو وجماعته ما أبهوا إلا للذهب الذي ينسج الملابس، يطوق الأعناق، يتدلى في الآذان حتى يجعلها أشبه بالأطباق الصغيرة. وذهب العرش خاصة. وما أدراك ما ذهب العرش الذي يجلس عليه أتاهوالبا، وما الشمس التي تخطف الأبصار فوقه، وذلك الطوق من الزمرد الضخم الذي يملأ صدر الملك، وذلك الثوب الموشى بالذهب والحجارة الكريمة التي يرتدي.

وتقدم راهب من رجال بيساروفتلا كلاماً بالأسبانية على أتاهوالبا لم يفهم منه الملك شيئاً. ورفع بيده كتاباً لا يعرف الملك ما هو، فهذه أول مرة يرى فيها كتاباً، لكن الكلام حين ترجم له جعل شفتيه تضطربان من الغضب. كان الراهب يطلب منه الخضوع لملك اسبانيا وأن يسلم بلاده إليه، وأن يتنصر هو وشعبه وأن يتبع الإنجيل، وتناول السابا الكتاب من الراهب فقلبه بين يديه ثم وضعه على أذنه ثم رماه. « إنه لا يقول لي أي شيء»، هكذا قال. وما كاد يلقي الكتاب حتى انطلقت بنادق الفرسان وتحولت الساحة، سيوفاً ودماء وأشلاء تتناثر. تحول الاحتفال إلى مجزرة، فقد كان الأنكا غير مسلحين. وتقدم بيسارو فخلع أتاهوالبا عن عرشه الوهاج، ودفعه أمامه إلى بعض البيوت، في الليل كانت أكثر من ثلاثة آلاف جثة تملأ طرقات المدينة المنكوبة، ونهب الذهب والفضة. نهب كله في كل مكان، بعد أيام فهم أتاهوالبا السجين أن هؤلاء القوم إنما يريدون الذهب والفضة والجوهر. فوعدهم أن يعطيهم غرفة ملأى بالفضة مقابل حريته. ورضي بيسارو بذلك وانطلق رسل الملك إلى أنحاء المملكة لجمع الفدية. كميات الذهب التي جاءت رهيبة. تزيد قيمتها على مليون ونصف المليون دينار ذهبي وعلى خمسة أطنان من الفضة، كان منها الشمس الذهبية للمعبد الأعظم. ومنها مقعد ذهبي ينساب منه الماء

إلى بحيرة صغيرة تسبح فيها الطيور، من حولها رجال يسكبون الماء، ومنها التماثيل ومنها الأواني والحلي العجيبة الصنعة. كل ذلك تقاسمه الفرسان، وقبل أن تنقضي الليلة الأولى على القسمة كانوا قد قامروا به وخسر معظمهم نصيبه في القمار. أما أتاهوالبا فلم يطلق سراحه. عمدوه بالرغم منه في السجن ثم قتلوه ليموت على الدين، وانطلقوا فوق الأراضي البراقة ينهبون ويطلبون المزيد، المزيد أيضاً من النجدات للنهب والتدمير. وديس الأنكا بالسنابك بعد أقل من سنة، كانت حضارة الأنكا الباذخة أطلالاً تذروها الرياح، وعدة أطنان من الذهب تحملها المراكب إلى اسبانيا.

ألم أكن على حق حين عدت بك إلى حديث الهنود الحمر؟

وهل أنا في قصة هذا الشعب المظلوم المنكوب بائع الأحزان أم بائع العدالة؟

الشعب الذي أبيد

الهنود الحمر تراهم في الأفلام أجساداً نحاسية مزينة بالريش وعيوناً تختزن الشرر الأسود يخرجون فجأة بالسهام كبعض الجان ويغيبون على خيولهم العاريات كالعواصف يسكنهم اللؤم والغدر ويسكنون قبائل الخيام. أهؤلاء هم حقاً الشعوب التي فاجأها الرجل الأوروبي الأبيض هناك على الطرف الآخر من المحيط يوم عبر المحيط قبل ٥٠٠سنة؟

الحديث عن الهنود الحمر حديث عن مأساة ٣٠ مليون إنساناً أبادتهم البندقية الأوروبية والمدفع، عن جريمة اشتركت فيها جميع القوى الأوروبية وكان لها أكثر من جنكيز خان واحد وكانت عملية من أفجع عمليات الإبادة الجماعية في التاريخ. باسم الكنيسة والمدنية هذا الثنائي الساحق تمت العملية. وكل أقنوم من هذا الثنائي كاف وحده لتبرير كل شيء. كريستوف كولومبوس في صورة الرمزية هناك وراء المحيط يرسمونه دون مواربة بشكل إنسان من شقين، شق يلبس الزرد ويحمل السيف، وشق في سواد الكهان يحمل الصليب، الحلف بين السيف والصليب دفعت ثمنه دما تلك الملايين المنكودة الحظ في العالم الجديد ودفعته أولاً أشلاء وإبادة وسحقاً تحت الحوافر ثم دفعته تشويهاً لحضارتها ومكانها الإنساني وتدميراً لعمرانها تحت ضغط العطش القاتل للذهب.

كل تلك الأنماط الأخرى من الفكر والحياة والعلوم والعقائد والأساطير وطرق الحياة والبناء والتنظيم الاجتماعي والحرب التي تطورت على حدة في تلك الأصقاع خلال القرون الطويلة السابقة لكولومبوس كل أولئك مسح عن الأرض حتى البشر لأن الأوروبيين كانوا يملكون البندقية من البارود والحصان ويعرفون النحاس والحديد. كان الحق معهم وعلى تلك الحضارات الأخرى أن تموت.

مؤرخو أميركا المتعصبون لتلك الأقوام المنكودة يسمون ذلك القتل الحضاري الجماعي بـ«القصة السوداء». والهنود الحمر لا هم هنود ولا هم حمر. جهل كولومبوس وأصحابه أطلق عليهم هذا الاسم حين كان يحسب أنه وصل المشرق والهند، وانكشف الخطأ بسرعة ولكن الاسم ظل على الألسن. ما هم؟ كلهم أمة واحدة على شفرة السيف الغازي وهم في الواقع شعوب وأمم شتى. الملايين الثلاثون الذين كانوا يتوزعون أرض القارة قد يكونون من جذر عرقي واحد هو الجذر المنغولويد ولكن تكويناتهم اللغوية والاجتماعية حوالي ٤٠٠ لغة. تطورهم الحضاري استمر ما بين ١٥ ـ ٢٥ ألف سنة قبل أن ينكبوا النكبة الكبرى بوصول كولومبوس والسيوف الأوروبية من ورائه. وكان لتلك الشعوب حضاراتها الباذخة. ثلاث إمبراطوريات كبرى كانت على الأقل ممدودة الجناح والتنظيم والمدن والفكر والجيوش والفن حين وصل الرجل الأبيض، الأزتيك في المكسيك، والمايا في كولومبيا والأنكاس في البيرو. تاريخها هو الوجه المظلم للقمر، الوجه المجهول منه ولو أنه تاريخ النصف الآخر من الإنسانية.

في التنظيم الاجتماعي كانت لهم الطبقات والتقاليد الدقيقة والنظام المتطور جداً. في توزيع الثروات وفي الإنتاج الاقتصادي. كانت لهم

الأقنية تعبر الجبال مئات الأميال، ولهم السدود والجسور والزراعات وأروع الصيغة للذهب والفضة وأنواع النسيج المختلف والأواني الفخاري، وفي الثقافة والعلوم لهم أديانهم وسلاسل الآلهة ولهم أساطير كغيرهم لتفسير الكون والقوى الطبيعية، وقد عرفوا أنواعاً من الكتابة التصويرية فنقوشهم لا تزال إلى اليوم بين مقروء ومستعجم وثمة مخطوطات أو مجموعات خطية منهم، ولهم معارفهم الطبية الواسعة، منذ عهد قريب نشر كتاب بمجموعة نباتات الأزتيك في الطب، ولهم نظامهم الحسابي العشريني والحساب بالعقد ووضعوا إشارة للصفر، وأما في النجوم والفلك فقد مشوا في هذا العلم الديني أشواطاً هامة، كانوا يسبقون بها أوروبا في عصرهم. التقويم الذي وضعه المايا يعتبر من أكثر التقاويم الفلكية دقة ولا تسأل عن الأعمال الفنية، عن الفعالية البديعية، عن الجمال، الرسم بالرمل واللون الناشف والنحت بالخشب والحجر. الرقص والموسيقى وبخاصة الغناء الصوتي كانت دنياهم الجمالية الكبرى، مشكلتهم الغريبة فقط أنهم لم يكونوا يعرفون العجلة ولا استخدام الحيوان. الإنسان، الجهد البشري، ظهور الناس وأيديهم وعضلاتهم هي التي كانت تحمل، تنحت، تبني، تنقل، تنسحق، تصنع كل شيء. حضارتهم حضارة قام بها الإنسبان وحده. فهل أحدثكم كيف بادت هذه الشعوب المنكودة؟

حسبي من تلك الملحمة المأساوية فصل واحد مسحت إمبراطورية الأزتيك في المكسيك. عاصمة الأزتيك كانت جزيرة في بحيرة. البحيرة على ارتفاع أكثر من ٢٠٠٠ متر في أحضان الجبال. قمم كالمردة، بعضها براكين تكسوها الثلوج وبعض صخور تناطح السماء. المدينة كانت بندقية القارة الأميركية بأزقتها المائية وبالأقنية الرجراجة المغلغلة

فيها كالشرايين. ثلاثة طرق مستقيمة من الحجارة الضخمة تعوم على أكداس، حجرته مغروسة في الماء مسافة ٣ـ ٥ كيلومتر وبعرض يكفي لمرور عشرة فرسان كانت تصل الجزيرة بالبر وتلتقي في ساحة مربعة وسط المدينة يقوم فيها القصر الملكي وأعلى الأهرامات أوتومبا المخصصة للأضاحي الإلهية، ٣٦٠ ألفاً كان سكان هذه المدينة وبيوتها ٦٠ ألف بيت. قصر الملك منها مائة غرفة ومائة حمام بالماء الساخن وعشرون باباً له، وقاعة تتسع لثلاثة آلاف زائر ولا تسل عما يضج في جنباته والقاعات من الذهب والخشب المحفور والرخام، والحدائق فيها ألوان الزهر والطير والحيوان. إلى هذه المدينة اتجه القائد الأسباني كورتيز الغازي الدموي سنة ١٥٢٠، وكان قد قطع مع مجموعته المحدودة من الجند أقسى الدروب الجبلية وعرف رعب الغابات الملتفة وهجمات القبائل وعواصف الريح الصقيعية. حين أطل مع أصحابه على المدينة بعد ١١ أسبوعاً من المسير بهت، وبهت أصحابه، كتب بعضهم: أنحن إيقاظ أم نيام. لم يشاهد إنسان، لم يسمع إنسان، لم يحلم إنسان بشيء يشبه هذا المنظر الذي بدا لنا هذا اليوم من الأبراج والمعابد والمباني الذهبية التي تعوم وتتمرى فوق الماء. أما القائد كورتيز فكتب أنها أجمل شيء في الوجود.

قصة الغزو بعد ذلك جرت كما لو كانت مأساة تراجيدية مرعبة. أدَّب كورتيز، القوى التي مر بها وبعضها من الجماعات التي تكره الأزتيك. أحرق السفن التي جاء بها تماماً كما فعل طارق بن زياد. تسلق الدروب الجبلية وسط الأودية والغابات ولكنه حين اقترب من المدينة فوجئ المفاجأة العظمى: جموع من الأزتيك تحييه وتحيي أصحابه في الشوارع ومن أسطحة المنازل، وجهاء المدينة بكامل بزاتهم المزركشة

بالذهب واقفون لاستقباله وجاء محمل نزل منه الملك موكتي زوما في أبهى حلله وحمل مظلته عدد من النبلاء فقدم وقدموا له الهدايا الرائعة بينما كان أسطول من السفن بالزهور يملأ البحيرة. قال الملك: مولاي لقد جئت تتسلم عرشك، إن شعبك رهن إشارتك وتحت حمايتك. أهلاً بك في مملكتك يا مولاي. كانت ثمة أسطورة في تاريخهم تتحدث عن الإله الأبيض الذي سوف يأتي من الشرق ويستلم المملكة. وتلمظ كورتيز وجماعته للغنيمة السهلة. حتى خيولهم تلك الأيام فرشت لها الفرش لتنام. أول ما فعله كورتيز أنه سجن الملك لينفذ ما يريد من الأوامر عن طريقه. وأحرق سعة ٥٠٠ عربة من أسلحة الأزتيك وانكشف تدريجياً لجماعة الأزتيك المخدوعين زيف هذا الإله وزيف الأسطورة، واضطر كورتيز أن يغادر المدينة لبعض الحروب ضد بعض منافسيه الاسبان فلما عاد وجد الدنيا قد انقلبت عليه وعلى جماعته. نهب أصحابه الذهب وقتلوا مجموعات من الأزتيك في المعابد وهدموا أنصابهم الضخمة فقامت ثورة قتلت في ليلة واحدة ثلث الأسبان. وحين حاول موكتي زوما الملك تهدئة الثورة رماه الثوار بالحجارة حتى مات وهرب الاسبان الباقون مطرودين خارج المدينة إلى الغابات.

وفيما كان كورتيز يهيئ حملة حربية للهجوم على المدينة كان الأزتيك ينتخبون ملكاً شاباً شديد الشجاعة كان كما قال الاسبان أجمل من أن يكون هندياً. جعل شعاره الموت ولا الاستسلام ورمزاً لذلك صعدوا بأربعة من الأسرى الاسبان إلى أعلى هرم الأضاحي عند مطلع الشمس والتمعت مدية الكاهن الأكبر فوق صدورهم واستخرج القلب ليقدم هدية لإله الشمس.

وضرب كورتيز الحصار بعد أن نظم جنوده والنجدات والسفن. استمرت المعركة ٧٥ يوماً وتمسك الأزتيك بأرضهم بالأيدي والأسنان. أشلاؤهم كانت تلطخ الجدران الحجرية وهم صامدون، دماؤهم تصب في البحيرة وهم صامدون، بيوتهم تخرب بيتاً بيتاً وهم صامدون. أكلوا لحاء الشجر، اختنق الجو بالجثث المتفسخة. نزلوا ونزل الملك إلى السفن يقاتلون ومن سقط منهم في يد الاسبان ذبح، ١٥ ألفاً ذبحوا بهذه الطريقة وفي مثل هذا اليوم من شهر أغسطس سنة ١٥٢١ سقطت المدينة كانت الأمطار الغزيرة كأنما تبكيها حين أسر الملك المغلوب، ويوم أوصلوه إلى كورتيز قال لقد بذلت جهدي للدفاع عن بلدي. ولما كنت قد أسرت فهات خنجرك واقتلني. المدينة وراءه كانت مجرد خرائب يتصاعد منها الدخان والنار ورائحة أكثر من ٥٠ ألف جثة متعفنة تملأ حوض البحيرة الجبلي وانتهت مدينة الأزتيك إلى الأبد. ألم نظلم هذا الشعب الذي يسمونه بالهنود الحمر؟

بيتان العجوز

سنة ١٩٤٥ خرج عجوز في التاسعة والثمانين من العمر ، بعكازه من المحكمة العسكرية الخاصة في باريس تحت الحراسة المشددة وركض الأسلحة والأرجل حوله، ولحقته الصحف بعد ساعات بالخبر: «لقد حكم بالإعدام»، وخفف الحكم إلى السجن المؤبد في جزيرة «إيو» على الشاطئ الفرنسي المطل على المحيط الأطلسي.

وشهدت جزيرة «إيو» موكب السجين التسعيني يدخل قلعتها وتغلق عليه الأبواب بصرير كالنواح.

القلعة كانت هناك منذ العصور الوسطى، تغسل أقدامها بأمواج المحيط، وتلتحف بالضباب الرمادي. منذ تلك العصور نسيها التاريخ وها هي ذي تدخله من جديد مع هذا السجين الذي دخلها. صخورها المهترئة بالرطوبة والطحالب ما شعرت بالرجل. ولكن الناس كانوا يستطيعون أن يروا سواده من بعيد وهو يتمشى أحياناً فوق الأبراج الضبابية العتيقة كأنه شبح قادم من أعماق القرون، ويقف أحياناً ليغرق أنظاره في المحيط، ليغرق ذكرياته في المحيط، ليغرق مأساته في المحيط، كل أنداده ماتوا، وبقي كجذع شجرة الدلب الدهرية. ليقاسي مع الوحدة والغربة الكاملة، والسجن ما هو أشد من كل ذلك، ليقاسي صورته السوداء لدى من كانوا حتى عهد قريب يعتبرونه بطل فرنسا الكبير.

ست سنوات ظل كذلك حتى جاءه الموت أخيراً وهو في الخامسة والتسعين. وفي حانات الجزيرة كانوا كثيراً ما يتداولون مأساته. وهم ينظرون إلى القلعة، وينقسمون فريقين، ويهزون الرؤوس. فرنسا كلها كانت فريقين في شأنه، ولكن الفريق المؤيد له، الراحم له، العاذر له، كان الفريق الأضعف، معظم الفرنسيين كانوا يقفون في الطرف الآخر ويرمون اسمه بالحجارة والأقذار، الرجل هو المارشال بيتان. هل يذكر أحد من المارشال بيتان؟

حياته الأولى، منذ ولد سنة ١٨٥٦ حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤، كانت حياة أي عسكري في الجيش الفرنسي، سوى أنه كان محبوباً، ذا شعبية بين الجنود الصغار، وأنه كان مكروهاً في القيادات العليا. نظريته في التكتيك العسكري، التي كان يدرسها في الكلية الحربية، كانت مرفوضة، ولهذا تأخر ترفيعه فلم ينل لقب جنرال حتى اندلعت الحرب سنة ١٩١٤ وكان في الثامنة والخمسين، وفي السنتين الأوليين من الحرب، قفز درجات الترفيع قفزاً ثلاث مرات. ثم صار ألمع اسم عسكري في فرنسا بعد المعجزة الحربية التي حققها في معركة فردان سنة ١٩١٦.

كانت فرنسا قد تلقت الضربة الألمانية الساحقة والقاسية والساخنة سنة ١٩١٤، ولم تستطع إيقاف الجيش الألماني عن الوصول إلى باريس إلا بأفجع الجهد والجهدْ وتحولت الحرب بين الألمان والحلفاء على الجبهة الفرنسية التي كانت تدعى آنذاك «الجبهة الغربية» لدى الألمان و«الشرقية» لدى الفرنسيين إلى حرب الخنادق، حفر كل طرف من الطرفين خنادق باتجاه الآخر، تحولت الأرض إلى خطوط طويلة من الحفر. ومن خلال الحفر، وأكوام التراب، وطين الأمطار الشتوية، وغبار

الصيف كانت النار تندلع دون انقطاع. إشعال لفافة من الدخان كان يكفي لتصيد صاحبها ولاشتداد الهزيمة. مدينة فردان الحصينة كانت ضمن خطوط الخنادق والقلاع في الميدان.

واستهل الألمان سنة ١٩١٦ بهجوم عام في الجبهة الغربية، يقوده ولي العهد الإمبراطوري، وغرضه اجتياز الخنادق التي تعفنت والوصول إلى باريس، كان محور الهجوم وضربته القاصمة، موجهين إلى فردان، وقد كلف الجنرال بيتان الدفاع عنها وإيقاف الزحف. كان موقفه العسكري من الناحية العملية ميؤوساً منه. ولكن بيتان عرف كيف يعيد تنظيم جبهته ونظام النقل عليها، وكيف يستخدم مدفعيته الاستخدام الحكيم، وبهذا الشكل صمد، وصمد، كانت المعركة مجزرة بشرية، دامت ثمانية أشهر ما بين فبراير ونوفمبر وتحطمت الهجمات الألمانية المتتالية على الجدار البشري العسكري الذي أقامه بيتان وانتهى الأمر. نصف مليون جثة ونصف مليون جريح كانوا على الأرض. كانوا حصاد هذه المعركة من الطرفين. ولكن نجح بيتان في أن يمنح جنوده البطولة التي أضحت تاريخية وأسطورية وانتصر. وأوقف الزحف الألماني الشرس المستميت بدفاع شرس مستميت من مثله. وأضحى بيتان بطلاً قومياً، صار أسطورة الشعب. وحين قامت بين الجنود الفرنسيين بعد ذلك بعض التمردات ضد رئيس أركان الجيش لم تجد القيادة من يهدئها سوى تسمية بيتان لهذا المنصب. وبسرعة أعاد الرجل النظام في الجيش بأهون السبل، وتحت إشراف بيتان وبقيادة المارشال فوش القائد العام للجيش الفرنسي حقق الحلفاء الهجوم المنتصر على الألمان سنة ١٩١٨ وأنهى هذا الهجوم الحرب العالمية الأولى.

عند توزيع أكاليل الغار في تلك السنة نفسها كان نصيب بيتان أن يصبح مارشال فرنسا، وسمي بعد ذلك نائب رئيس مجلس الحرب والمفتش العام للجيش كله. وتمضي خمس وعشرون سنة بعد ذلك، وتندلع الحرب العالمية الثانية وتنهار الجبهة الفرنسية الانهيار المخزي سنة ١٩٤٠ تاركة على ترابها أكثر من مليون قتيل. ويدخل الألمان باريس، ويحتلون ثلثي فرنسا. فأين بيتان؟

كان في الرابعة والثمانين من العمر. ومع ذلك فقد كان في الحكومة الفرنسية الأخيرة، «حكومة رينو». وكان نائب رئيس الوزراء، فطلبوا إليه أن يؤلف الحكومة، كانوا يستغلون رصيده الشعبي الضخم، ينشرون معركة فردان التي كانت وراء اسمه، يفتشون عن معادل للهزيمة المرة، ومن خلال هذا كله أذاع بيتان بطل فردان على الفرنسيين نداء الاستسلام، في ١٧ يونيو ١٩٤٠ قال بقلب جريح: «أقول لكم اليوم أوقفوا القتال». بعد ذلك وقع وثيقة الهدنة، ثم أجتمع مجلس النواب والشيوخ في بلدة فيشي التي اتخذت عاصمة مؤقتة لفرنسا ومنحا بيتان رئاسة الدولة والسلطة المطلقة في العمل، بعد ٢٤ ساعة من إذاعته لنداء الاستسلام كان جنرال عادي هارب من فرنسا اسمه الجنرال ديغول يذيع من لندن نداء آخر للصمود ويقول: «إن فرنسا خسرت معركة ولكنها لم تخسر الحرب».

وبدأت بذلك مأساة بيتان. كان عليه أن يكون بوجهين: وجه تكتيكي يساير الألمان المحتلين ويقبل ما يريدون وما يدبرون، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في فرنسا، ووجه وطني يحاول أن يحتفظ بالجسور مع المقاومة الفرنسية الخارجية. قال بيتان للفرنسيين إثر اجتماعه بهتلر في أكتوبر سنة ١٩٤٠: «إني أسلك اليوم طريق التعاون على أساس التمسك بشرف

فرنسا، ومن أجل الحفاظ على الوحدة الفرنسية، إن التاريخ سيصدر حكمه علي، كنت في السابق أخاطبهم كأب، أما اليوم فأخاطبهم كقائد، اتبعوني وضعوا ثقتكم في فرنسا إلى الأبد».

ولكن ديغول كان يقول بدوره أيضاً من خارج فرنسا: «اتبعوني». أربع سنوات دام النداءان، وبالرغم من أن بيتان رفض التعاون العسكري مع ألمانيا ورغم أنه أرسل في السر مندوباً من قبله إلى لندن، وأنه قابل الجنرال فرانكو الأسباني واتفق معه على عدم السماح للجيش الألماني بالعبور من اسبانيا، وكان على صداقة وثيقة مع سفير الولايات المتحدة عنده قبل دخولها الحرب، ومع أنه منذ سنة ١٩٤٢ قد أضحى رئيساً شكلياً للدولة، ومع أنه أرسل بعد احتلال الحلفاء لباريس سنة ١٩٤٤ مندوباً إلى ديغول لتسليمه السلطة، ومع أن الألمان اعتقلوه بعد ذلك وأخذوه منفياً إلى «سيغمارينغن»حتى استردته سلطات الحلفاء، رغم كل ذلك، فقد أحيل الشيخ التسعيني للمحاكمة. وضمن جو التحرير الفرنسي ونشوة النصر والغضب الساطع على الألمان والمتعاونين مع الألمان حكم على بيتان بالموت، وخفف الحكم إلى السجن المؤبد. كانوا يعدمون فيه التعاون، يعدمون مبدأ مهادنة العدو، حتى ولو كانت فردان وراء هذا المهادن، أربع وثمانون سنة من الخدمة المخلصة الرائعة لفرنسا، محتها أربع سنوات جدلية من التعاون مع الألمان، والملف بعد هذا لا يزال مفتوحاً.

والسؤال لا يزال إلى اليوم معلقاً: هل يستحق بيتان مصيره؟ هل هو مظلوم؟

هتلر، هل ظلموه؟

فتح الملفات المعاصرة، وإن كان أصحابها قد دخلوا التاريخ مشى على الشوك والألغام وعلى الجمر أحياناً. قضاياها آلامها، أهواؤها، لحومها، لا تزال ساخنة تنزف وتحرق. ومع ذلك فسوف آخذ من جهنم جمرة، وأتحدث عن واحد من المغضوب عليهم ومن الضالين: «هتلر»، بلى! وقفة من فضلك هنا. لست آتي بهذا الحديث لأدافع عن الرجل وعن مذهبه ودنياه العمياء. أنا أكره النازية لأني أؤمن بالفكر، أكرهها لأني أؤمن بالإنسان وأكرهها أيضاً وأيضاً لأني أكره الظلم، وإذا لم أكن مستعداً لأن أخون ذاتي، فأدافع عن النازية كمذهب فكري سياسي، فإني في الوقت نفسه لست مستعداً لأن أخون ذاتي فأقبل الظلم حتى لأعدائي. شق الصدور بالنار واستخراج القلب منها ينتفض كالعصفور أهون عندي من الظلم. ولقد عودت جمجمتي أن تنفتح للرياح الأربعة، عودت فكري أن ينتقل إلى الجبهة النقيضة ليفهم وجهة النظر الأخرى. الأحكام الأحادية الجانب ذات عين عوراء وأنا أشتهي دوماً أن أحتضن الحقيقة بألف عين.

بعد هذه الوقفة، هل لنا أن نتحدث دون عقد عن هتلر المظلوم؟ الرجل حتى الثلاثين من عمره سنة ١٩١٩ لم يكن شيئاً في حساب الناس ولا التاريخ. كان أفضل ما فيه أنه يعمل أحياناً بالرسم والتلوين، دهانا

أحياناً ومصور جدران أو بطاقات أحياناً أخرى. في الحرب العالمية الأولى ترقى إلى رتبة عريف في الجيش بعد أن جرح مرتين، ويوم انتهت الحرب سنة ١٩١٨ كان في المستشفى أفقدته الغازات السامة بصره إلى حين، فلما شفي عمل في الشرطة السرية يراقب الشيوعيين. ولم يكن شيئاً في الثقافة ولا في الفكر ولا السياسة. كل ثقافته قراءات آفاقية، وكل سياسته وفكره هزيمة بلاده في الحرب. كانت الجرح الكبير في صدره. لماذا هزمت ألمانيا؟ وفي ميونيخ سنة ١٩٢٠ وضع الجواب في خطاب ألقاه في مشرب للجعة على جماعة من العمال التقى بهم التفوا حوله، ولم يكن الجواب بدعة من اكتشافه. كان الكثير جداً من الألمان غيره يقولون بالذي قاله يريدون أن يضمدوا الكبرياء الجريح من جهة ويوجدوا كبشاً يصبون عليه من جهة أخرى أوزار الهزيمة التي تثقل الكواهل. في رأيهم ورأيه أن العرق الجرماني الألماني عرق متفوق وسبب هزيمته هم الأجانب اليهود، ويجب أن تستعيد ألمانيا الكبرى مكانتها ومستعمراتها.

بعد ثلاث سنوات كان الكثيرون قد تجاوبوا مع أفكار هذا الحزب الصغير الذي سمي بـ«النازي». تجاوبوا لدرجة أنه حاول تهيئة انقلاب ضد الحكم وفشل، وسجن هتلر، وفي السجن شرح أفكاره الأولى في كتاب «كفاحي» الذي ظل إنجيل السياسة الألمانية قرابة ربع قرن. بعد عشر سنوات من ذلك، كان هتلر مستشار الرايخ الألماني. وبعد ست سنوات أخرى سنة ١٩٣٩ كان يخوض الحرب العالمية الثانية. وفي سنة ١٩٤٥ حين دخل الحلفاء برلين منتصرين اختفى هتلر في ظروف غامضة أشبه بالانتحار. منذ ذلك الوقت دخل اسم هتلر نهائياً في قائمة أعداء العصر والإنسان. القوة في سخام المحارق وفي جهنم الأقلام. جعلوه صورة الشيطان الكاريكاتورية، بخصلة شعره المهتزة والشارب المقطوع

لاحقوه باللعنة وحجارة الرجم. حملوه دماء الملايين العشرين من القتلى في الحرب، ونفضوا أيديهم يبرأون. حرب القبائل المتمدنة التي يسمونها بالحرب العالمية الثانية كانت همجية كل العصور. الإنسان الوحش الكامن وراء جلد الغربي تعرى عليها، افتضح، كلهم افتضحوا وافتضح معهم الكلب الاستعماري الذي يكنون، فراحوا يسترون عريهم الوحشي بهتلر. جعلوه وحده المسؤول عن نكبة الدنيا، وكان الرجل يملك من سوء الحظ ما يكفي لأن يخسر الحرب ولأن يحمل كل تلك الأوزار برغمه كعبيد القرون الأولى.

لو تحررت أنت وأنا قليلاً من الرجم الدعائي، لو وقفت أنت وأنا على الشاطئ الآخر ونظرت لاختلف المنظر جداً. الرجل أولاً لم يخترع النظرية العرقية الآرية وفكرة النقاء العنصري. ولا إرادة القوة وضرورة فرض هذه الإرادة في المجال الدولي. إنه ابن الفكر الألماني في القرن الماضي، وهذا القرن وإلى اليوم أيضاً: من هيغل إلى فيخت إلى نيتشه إلى روزمبرغ وفيدر، كان الألمان يقولون بالذي قاله وطبقه هتلر. الذين يحاكمونه إنما يحاكمون الفكر الألماني كله. هتلر لم يكن فرداً كان أمة، ولو لم يوجد هتلر خبئ في قراره كل ألماني، فهل كان يوجد هتلر؟ وهل كان يصل القمة وبتلك القوة الكاسحة؟ والرجل ثانياً كان همه الأوحد الخلاص من الجرح الألماني من المذلة التي فرضها أصحاب معاهدة فرساي في عماهم السياسي الجشع على ألمانيا. ذنب هتلر أنه أحب بلاده حتى الجنون. حقد على الذل وعلى الضعف وعلى أسبابهما والجذور. كان همه أن تسترد ألمانيا قوتها، مجالها الحيوي، مكانها العالمي. أن تقوم الجامعة الألمانية التي طالما تحدث بها المفكرون والسياسيون الألمان. كل عقبة في طريق ذلك يجب أن تسحق، وقد نجح في نقل ألمانيا إلى مستوى

القوى العظمى. الذين حاربوه من فرنسيين وروس وأنكليز وأميركان، ترى ألم يكونوا يحملون الحب المجنون نفسه لبلادهم؟ والحقد الأعمى نفسه عليه لأنه يعاديها؟ هل حاربوه إلا لأن مجاله الحيوي اصطدم بمجالاتهم، ولأن المصالح التي يبحث عنها لأهله اصطدمت بمصالحهم، ولأن رغبته في الهيمنة القارية والعالمية هددت هيمنتهم المستقرة؟ وإن تكن هذه الأمور جريمة أليسوا في هذه الجريمة سواء؟ أليسوا أيضاً بالمجرمين؟ لا تحدثوني عن المبادئ والمثل في السياسة إنها مماسح الأقوياء وأستار الزينة في أقواس النصر. العلاقات الدولية في عريها الوحشي ليست أكثر من صدام المصالح وتكالب الأنياب. قد تهدأ فتسمى سياسة، وقد تسخن لتصبح حرباً وقودها الناس والحجارة. لكن من عليها ليسوا بالملائكة وأن كانوا بلى الشداد الغلاظ، وفي المسؤولية النهائية أليس يستوي إذن الغالب والمغلوب؟

والرجل، ثالثاً، كان من أصحاب الأحلام القومية الكبيرة،ولكنه لم يكن أبداً من المهووسين ولا المستهترين، أعداؤه كتبوا عنه أنه كان ذا مزايا استثنائية في المفاوضة، وعناد في الخطط، ونظر ثاقب وقوة وعزم لا تقهر. قالوا: كان يبرهن في مختلف المناسبات على حدس سياسي حقيقي صحيح، وبخاصة في تقدير نفسية الجماعات. الوثائق الألمانية التي وجدت كشفت أن آراء هتلر وأحكامه في السياسة العامة كانت أحياناً نافذة جداً وصحيحة جداً. هذا بالإضافة إلى موهبة خطابية شديدة الجاذبية وقوة في الإقناع وألمعية في التهكم قلما يستطيع الألمان استخدامها. ولكن هتلر في الأفكار التي جند لها الألمان وقع من حيث لا يحتسب في مهب القوى الأربع التي تحكم العالم كمردة الأساطير، انتفضت هذه القوى أمامه. أثارها كلها في وقت واحد، وحاربته كلها مجتمعة صفاً من

الجبابرة. تلك خطيئته المميتة وما ظنك برجل يدخل مع الرأسمالية والشيوعية والصهيونية والكاثوليكية المصارعة الخرة في وقت معاً. الرأسمالية التي تسمى نفسها بالعالم الحر كان هتلر عدوها الأول أنه كان يعمل على تحطيم القيود التي فرضتها على بلاده. الحلفاء هم الذين سلبوا ألمانيا مستعمراتها وفرضوا عليها في «معاهدة فرساي» الهزيمة المذلة والغرامات الحربية، واقتطعوا من أراضيها وقيدوا قواها العسكرية. الدولية البولشيفية كانت العدو الثاني لأن الشيوعية تقوم على صراع الطبقات، وهتلر جمع الأمة الألمانية كتلة واحدة ذات إرادة واحدة، وأوقف التحرك الشيوعي في ألمانيا بالقوة. والكاثوليكية كانت تعمل ضده، إنها دولة من نوع آخر. الفاتيكان مؤسسة الدين والمال الرهيبة العالمية تقول«إن الجسد تابع للدولة والروح للكنيسة». هتلر رفض ذلك من أساسه كان يقول«لا شيء من هذا، إن الإنسان كله جسداً وروحاً تابع للأمة الجرمانية والمجتمع الجرماني وإلى خارج الأبواب بالكنيسة والأيقونات والمباخر».

وأخيراً، الصهيونية، الأخطبوط العالمي الذي نعاني منه ما نعاني، حاربت ولا تزال تحارب هتلر لا لأنه اضطهد اليهود، لا، ولكن لكي يزيد في اضطهادهم. بلى، لقد جندت الصهيونية كل قواها العالمية لكي تزيد في حملة هتلر واضطهاده لليهود، لكي توظف كل ذلك في الدعاية لأهدافها وفي كسب العطف العالمي عليها لابتلاع فلسطين. الوجه الشيطاني لهتلر كان من صنعها ليكون عكاز الشحادة، ليكون أكبر وسائلها في الاستغلال العالمي وفي تمرير الهدف الصهيوني. تلك القوى الأربع هي التي صنعت هتلر البغيض الذي نعرف. وإذا كان الرجل أبرع من استخدم الدعاية في الصراع السياسي فقد قتلوه بالسلاح نفسه،

وبالأساليب الدعائية التي ابتكرها. كل قوى الجن الدعائية جندت ضد هذا الاسم «هتلر». ترى لو انتهت الحرب العالمية الثانية بغير الذي انتهت إليه، هل كان هتلر في التاريخ ذلك الوجه الشيطاني اللعين؟ أما كان قضاة نورنبرغ الذين حاكموا النازيين كمجرمي حرب يجلسون مكان المتهمين وكان المتهمون يجلسون مكان القضاة؟ لو انتصر الرجل فربما لم يكن في عداد المظلومين، وربما لم تأخذ قضية فلسطين الطريق المأساوي الذي أخذت، ولكنه ربما كان أيضاً من كبار الظالمين ولكني على أي حال أشك في أن يكون أشد ظلماً واحتقاراً للإنسان من الظلاّم الباقين الذين انتصروا عليه وجثموا على رقاب العالم بالسكاكين والاستغلال إلى اليوم!! وعلى أي حال ألم يظلم هتلر؟

المبدع المظلوم

كنا في الحمراء، القصر الأعجوبة، خليطاً من الناس في رحلة. غرناطة في الخريف ذهب كلها تحت القمم الثلجية وسفوح البنفسج. أما الحمراء فروح وريحان وجنة نعيم. عناق الأنوار والأفياء، رقص الأقواس والنوافير. الذهب المسفوح على الجدران والنارنج كالسواقي المجدولة، كل ذلك كان سيمفونية تصخب، ترق، تتسلسل، تضج تبكي،تهدل بين العين والكبد. «ولا غالب إلا الله» تتردد كاللازمة بين مقطع ومقطع، كنت في صمت مشدوه حزين أفتش عن ضفيرة سوداء، عن عين سوداء، عن شمس سوداء، عن أي شريان يلمني حين أطلقت عجوز أميركية سؤالاً كالنقيق العالي. سألت الدليل الثرثار: «ولكن من الذي بنى هذه القصور الخيالية؟ أحقاً هم العرب؟ معقول أنهم العرب؟ لم أجد في أي مكان أسماء الفنانين المبدعين الذين صنعوا هذه الأعجوبة. ليس هناك أي توقيع، هل تدلني؟».

ولم يستطع الدليل، على ثرثرته، أن يجيب بما يرضيها وحين قال في غموض سريع: «بلى، إن القصر من آثار العرب، من الأعمال الرائعة لملوك بني الأحمر»، أصرت السائلة أن تعرف أسماء الذين صنعوا هذه الأقواس آية، آية، وتلك المقرنصات التي تضج بالنور، وقبائل الزخارف المحيرة ووسوسة المياه في الأقبية.

وما همست شفة بجواب، كنا نسير ولكن شرودي صار شرودين وكما تنداح الدوائر في لجة الماء يلقى فيه بالحجر أخذ السؤال ينداح في داخلي دوائر، يتفجر بعضها من بعض. وركضت في جبيني الصور إرسالاً. لا لعبة الورد والظلال في جنان العريف توقفها ولا صياح الرفاق. ثمة فعلاً قضية من قضايا الظلم في التاريخ. ومن قضايا الظلم المتمادي الأخرى، هناك قبائل من المبدعين، من الفنانين، من الجنود الصامتين، من البناة، من المبتكرين جاءوا وأبدعوا ومضوا، ومضوا ولم يحتفظ التاريخ منهم لا بالأسماء ولا الملامح ولا الظلال. من السواد يخرجون وإلى السواد يعودون، تماماً كعملية الخلق من التراب وإلى التراب. ولكنهم، فيما بين الحد والحد الآخر، يتألقون كالشهب. يقدمون للإنسانية العطاء السخي، يتركون بصماتهم المجهولة في كل جميل وخالد وبطولي. وتنسب أعمالهم إلى غيرهم وهم ينظرون، يلتهم أعمالهم تنين دائم الجوع، عتيق الافتراس اسمه الحكام والملوك وركب الأباطرة، تحجب أسماءهم أشباح جبارة، كان لها الأمر والنهي وركب المواكب ووضع الكلام على لسان التاريخ. ويقول التاريخ: «بني الملك قصر كذا. انتصر القائد في معركة كيت. وضع الإمبراطور القانون الفلاني»، وإنما الذي بنى، هم أولئك العمال الذين كانوا يزحفون كقطار النمل في التراب، وإنما انتصر اولئك العمال الذين جعلوا جثثهم جسراً ليعبر الاخرون،وإنما ترجم وشرع أولئك الذين أذابتهم الشموع والأسرجة وأذابوها، ليترجموا ويشرعوا واكتفوا بالفتات للعيش، وذهب سيد العشيرة، سواء كان اسمه إمبراطوراً أو ملكاً أو رئيساً، بسابغ الأمجاد.

ودعك من مبتكر النار كيف توقد، ومبدع الحرف خطاً يحمل الفكر ومخترع العجلة حركة متصلة. دعك من أولئك الرواد فيما قبل التاريخ

وهات من حديث التاريخ. عجائب الدنيا السبع: في القديم كان منها الأهرام فمن ذا الذي هندس أركانها ثم سواها جبالاً كثيرة، عديدة هنا وهناك إحداها جبل من مليوني حجر ضخم. حجراً على حجر بني، وشقت دهاليزه العتمة حجراً. هل كان خوفو أو خفرع أو منقرع في كل ذلك أكثر من متفرج مثلي ومثلك؟ ولكن بيده السوط وأمامه البناة يأكلون العدس ويزحفون بالصخر فوق الرمل. والجنان المعلقة جنان سميراميس، عجيبة الدنيا الأخرى. هل كانت سميراميس أكثر من غانية أرهقها البطر؟ فالحدائق لوقع قدميها ولما مس العشب والزهر من الأذيال؟ وتدخل بعلبك وتنظر الصخر الجبار قد حفر تزاويق تحسبها وشي الإبر. تحسبها دانتيلا صخرية تأكل الصبر، تحسبها كروماً ونباتاً من النبات قد فاجأته عينا ميدوزا التي تحول كل شيء إلى حجر. فجمد مكانه على الأفاريز بصمات مبدعها الصبور هناك. ولكن أين توقيعه؟ وما اسمه؟ كذب أباطرة الرومان، لم يبنوا من بعلبك حجراً ولا أداروا زهرة على الصخر فمن هم إذن أصحاب الأزميل المبدع؟ وسد الصين الأعظم، لو رأيته يمتد على رؤوس الجبال مع الغيم أفعوانا من جلاميد الصخر، ينبع من حيث لا تدري ويغيب حيث لا تدري. والأبراج تركبه هنا وهناك خمسة آلاف كيلومتر لو رأيته. إذن دهشت، حرت حيرة البحتري أمام الإيوان ليس يدري أصنع أنس لجن شيدوه أم صنع جن لأنس؟ ومع ذلك فإنك في لحظة من لحظات الشفوف الإنساني لن ترى فيه جبروت الأباطرة، ولكن آلاف الأجساد والبناة المجهولين الذين دفنوا تحت كل حجرة من حجارته حتى اكتمل. وتلك اللوحات من الفسيفساء الذهبي الذي يستنفد الصبر ويأكل العيون في قبة الصخرة. أو في الجامع الأموي أو قصر هشام. أو في أيا صوفيا أو كنيسة رافينا. هل

صاغها عبد الملك أو الوليد أو هشام أو جوستنيان؟ ونقول: ترجم المأمون الكتب الفلسفية والعلمية إلى العربية، فهو أبو التمازج الثقافي ورمز التطلع العلمي. وما ترجم ولامس كلمة. ولكنهم مئات من المترجمين أفنوا الأعمار في صوغ هذا المصطلح وتدبر ذلك المفهوم وتسوية تلك الأفكار سنين بعد سنين طويلة. حتى تركوا لنا ذلك التراث. ويكتب المؤرخون بني المتوكل سامراء قصورها الجامعة والحدائق. ويتكلمون عن مساجد السلاطين ومدارس الملوك والأمراء، وعن التكايا والبيمارستانات والقصور التي تزرع الأرض العربية الإسلامية بالنور، بالجمال، بالروح البديعية والشعر. أليس البناة المجهولون هم الذين بنوا واهترأت أيديهم بالطين والعرق ثم غابوا في الدهاليز؟ محوا أنفسهم بالأقواس الممردة، أذابوها في سيمفونية الخطوط واللون والظلال، وجاء الحكام في النهاية فوضعوا تواقيعهم وأختامهم على الأعمال؟ وقناة السويس، وقناة بنما، في هذا العصر الحديث، هل بناها فيردناند دي ليسبس حقاً؟ فماذا فعل إذن آلاف العمال الذين يعملون، أو الذين كانوا يحملون قفاف التراب تحت لهيب الشمس سخرة في سخرة؟ وماذا صنع مئات المهندسين بملايين الحسابات والأرقام التي وضعوا ومحوا على العرق والغبار وحرق الأعصاب؟ وأين ذكر الذين ماتوا تحت الردم أو لفظوا الأنفاس من الجوع والعطش؟ أليس ما يجري في القناة من الماء قد عادله هؤلاء بمثله دماً وعرقاً حتى جرت القناة؟ ويمر الإسكندر ويوليوس قيصر وجنكيز ونابليون ومونتغمري في التاريخ عباقرة حرب، من حولهم الطبول والبوقات وعلى رؤوسهم أكاليل الغار. أوسمتهم على الصدور أليست من عرق الذين لهثوا حولهم حتى الموت في الميادين؟ أكاليل نابليون أليست من دماء الملايين التي كانت دونه؟ ومن الأشلاء ومن كل

بنان خضيب؟ أليس ربع مليون جندي كان ثمن «الغصن الذهبي» الذي أضافه المارشال مونتغمري إلى قبعته؟ وغاب الأبطال الحقيقيون في العتمة الأبدية وأحسب أن الشعوب التي تدفع هذه الأثمان الغالية للجزارين الكبار، تجار الحروب، أحست أخيراً بمكانها من عملية النصر، بدورها في صياغة الغار. أليس هذا معنى تلك الأنصاب التذكارية التي تقام للجندي المجهول بكل مكان والشعلة الخالدة فوق قبره. أكاليل الزهور في كل عيد وموكب؟ ترى لم لا يقام نصب تذكاري مماثل للمبدع المجهول؟ أنه على الأقل رمز البناء والحب للإنسان، لا رمز للقتل والحرب. أليس المبدع المجهول أكبر المظلومين المنسيين في التاريخ؟!!

كافور الذي شوهته القصائد

مسكين كافور، كافور الأخشيدي أبو المسك!!

نحن نجرر اسمه في موكب مـن الغربـان والبـوم. ننقـل سـواد لونـه إلى عهده فهو قطعة من الليل. نجعل الاسم شتيمة....

لماذا؟ لأن شاعرنا الأثير المتنـبي، هـذا البـوق الدعـائي الرهيـب، أطلـق أحرفه كالكلاب تنبح وراءه عبر العصور. وصدقنا تطريـب تلـك القـوافي وإلى الشيطان بالحقيقـة والتـاريخ...! اثنتـان وعشـرون سـنة مـن الحكـم الفاضل الطيب محتها بضع قصائد ....شوهتها وشـوهت وجـه كـافور الحقيقي، ألبسته القناع البغيض!.... وضاع كـافور التـاريخ، غـاب وراء القناع، وبقي لنا كافور المتنبي وما أدراك ما كافور المتنبي؟

إنه «أبو النتن» بدل أن يكون أبا المسك! وحدث ما شئت بعد ذلـك عن صورته المنكرة تارة، الكاريكاتورية تارة أخـرى. وحـدث مـا شئت عن كتلة المخازي التي تحمل اسم كافور».

أميناً وأخلافاً وغـدراً وخسـة   وجبناً؟ أشخصاً لحت لي أم مخازنـا؟

وحدث، عن الشكل الذي يضحك الثكالى:

ومثلك يؤتـى من بلاد بعيـدة   ليضحك ربـات الخدور البواكيـا...

ويفرش المتنبي لكافور ملاءة الشتيمة بلسان تحسبه الأفعوان المسموم:

أني نزلت بكذابين ضيفهم عن القرى وعن الترحال محدود
من كل رخو وكاء البطن منفتق لا في الرجال ولا النسوان معدود
جود الرجال من الأيدي وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود!
ما كنت احسبني أبقى إلى زمن يسيء بي فيه عبد.... وهو محمود
جوعان يأكل من زادي ويمسكني لكي يقال عظيم القدر مقصودة
أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله في مصر تمهيد؟
صار الخصي أمام الأبقين بها فالحر مستعبد. والعبد معبود!!

ثم من «آية الطرق يأتي نحوه الكرم»؟ أنه:

لا ينجز الميعاد في يومه ولا يعي ما قال في أمسه!
فلا ترج الخير عند امرئ مرت يد النخاس في رأسه!!

ويستغرب المتنبي أن يخدع كل هذا الناس، بمخلوق ليس أكثر من كركدن أو زق رياح:

فقد ضل قوم بأصنامهم وأما بزق رياح فلا!

ولكنه يستدرك فيقول:

وكم ذا بمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالبكا!.
بها نبطي من أهل السواد يعلم أنساب أهل العلا
وأسود مشفره نصفه يقال له أنت بدر الدجي!..

فهل ضل الناس، كل الناس، حقاً بهذا الكافور واكتشفه المتنبي وحده؟ أولاً! فأين كافور الحقيقي من هذا الكافور الشعري الأسود؟ الواقع أن كافور المسكين كان ضحية هذه الإذاعة المجلجلة التي شكلتها قوافي المتنبي عبر العصور. كافور التاريخ شيء آخر مختلف تماماً عن هذا الكافور الذي خلقه شاعرنا المدلل من أحقاده وأنزل عليه الصواعق!

بلى! كان كافور عبداً أسود خصياً بل كان أيضاً قبيح الشكل، ثقيل البدن مثقوب الشفة السفلى... تلمع عيناه بالبصيص.. ولكن كل عيوبه تنتهي عند هذا الشكل الجسدي الذي شهر به أغرب السير. كانت بلاده مصر والشام الجنوبية تابعة رسمياً للعباسيين، ولكنهم ضعفاء في بغداد، في حين يطمع بمصر أعداؤهم الخلفاء الفاطميين الذين اقاموا في المغرب. واستطاع كافور بدهائه أن يحتفظ بالعلاقة الطيبة مع الطرفين حتى مات!...بعد موته بسنة واحدة أخذ الفاطميون البلاد.

المتنبي نفسه هو الذي قال:

إذا منعت منك السياسة نفسها   فقف وقفة قدامه تتعلم!

وإلى هذا فقد شدا الكثير من العلم باللغة والأدب، وبرع في فنون القتال وانتصر مرات. وهكذا ارتضى الناس طريقته وارتضوه قرابة ربع قرن.

وكان المتنبي أكثر صدقاً مع التاريخ حين قال له قبل غضبته الكبرى:

أجفل الناس عن طريق أبي المسك   وذلت له رقاب العباد
هذه دولة المكارم والرأفة   والمجد والندى والأيادي

وكان الرجل ثانياً: كثير التواضع لم تأخذه العزة بالحكم مرة ذكروا أنه أيام بؤسه لحقه جرب كثير حتى طرده سيده. ومر بالسوق على طباخ وسأله بعض الطعام فضربه بالمغرفة الحارة على يده حتى احترقت وغشي عليه. وأخذه بعض أهل الإحسان فداوى حروقه. ويقولون أنه كلما عزت عليه نفسه ذكر ذلك لنفسه وقال: أذكر ضرب المغرفة. وربما ذهب إلى السوق وسجد شكراً لله! ...وقد قضى حكمه كله لم يحمل لقباً من ألقاب الملك. اكتفى بلقب الأستاذ!

وكان الرجل ثالثاً كثير التدين، كثير الصدقات، كثير الاحترام لآل البيت عارفاً بالناس وبأساليب احتوائهم بين اللين والشدة، وبين العطاء والحلم والغضب. وقعت مقرعته مرة في الطريق وهو في موكبه فناوله إياها أحد العلويين فكاد يبكي. وقال: ما كنت أظن أن الزمان يبلغني حتى تفعل بي أنت مثل هذا. فلما بلغ قصره أعطى العلوي ما في الموكب من مال ومتاع. وكانت قيمته تزيد على خمسة عشر ألف دينار!

وذكروا أن السماط المفتوح في بلاطه كان يذبح يومياً مائتين وخمسين خروفاً، ومثلها من الإوز وخمسمائة دجاجة، وألف طير من الحمام، عدا مائتين وخمسين قربة من الشراب، ومئات الصحون من الحلوى.

وقالوا: إنه كان يرسل كل ليلة عيد حمل بغل من المال في صرر، على كل صرة اسم من جعلت له، من بين عالم وزاهد وفقير ومحتاج مستور، ويزيد في عطاء الزهاد والنساك ويطلب منهم الدعاء. ويداوم الجلوس صباحاً ومساء لقضاء حوائج الناس. ويتهجد ويمرغ وجهه في السجود قائلاً:

اللهم لا تسلط علي مخلوقاً.....

وما كان كافور ينتظر أن يتسلط عليه المتنبي فيهدم اسمه في العصور. سألوه مرة لم لا يرضي هذا الشاعر ببعض الإمارة فقال: يا قوم رجل أدعى النبوة مع خير البشر ﷺ، كيف يوليه كافور إمارة؟....

ودفع كافور ثمن هذا الموقف غالياً جداً... غالباً حتى الظلم القاتل... ترى لو كان كافور يعلم. وهو يدافع المتنبي عن أطماعه، أن حكمه سوف يندثر وتبقى القوافي حية تسعى. تركض ترقص لكل أذن وقلب....

لو عرف أما كان يا ترى غير موقفه؟

بدل أن تقع فيه القوافي الظالمة إلى الأبد؟.....

السلطان الأحمر

السلطان الأحمر! سقط السلطان الأحمر!...

كانت هذه هي الكلمة التي تركض في شوارع استامبول أواخر إبريل/ نيسان ١٩٠٩ وتعبر منها بسرعة البرق إلى أنحاء الدنيا... وشيء كتنهد الراحة العميق ينبعث بكل مكان. إلى طبقات السماء.

مآذن إستامبول الموجعة الرشاقة، قبابها المتهدلة الملتمعة تحت شمس الربيع كالسلاحف المتثائبة، وقصورها الملأى بالخصيان والسراري ....وبالأسرار، أسوارها القديمة التي تتمرى، في القرن الذهبي والبوسفور، ومياهها المضطربة بالمراكب وحركة الأشرعة كل أولئك كان هادئاً صامتاً ولكن زلزلة، كأعنف ما تكون الزلازل كانت تضيج في داخله بثلاث وثلاثين سنة من التاريخ!

الظل الكبير الرهيب الذي كان يملؤها رعباً وأمراً ونهياً سقط مرة واحدة. انكمش إلى زنزانة منفى.. ليموت بعد تسع سنوات في النسيان. قصر يلدز أو «المابين» هيكل الطغيان الأعظم بدأ العد التراجعي ليصبح في المستقبل متحفاً للسائحين....

لقد انهارت سلطنة السلطان عبد الحميد الثاني!..

ثار عليه جماعة الاتحاد والترقي باسم الحرية والدستور بعد أن راوغهم وراوغوه... وحين دخل محمود شوكت باشا البغدادي بالجيش في

استامبول، ضربت أعناق المتمشيخين للسياسة لا للدين، ونفي ألفاً وخمسمائة من الحاشية، وخلع السلطان بفتوى من شيخ الإسلام تتهمه بقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وبسحق الأبرياء، وبالتعذيب السادي، ومخالفة الشرع وإحراق كتب الإسلام والإسراف في مال الأمة!!...

وسجل اسم عبد الحميد نهائياً في التاريخ بوصفه سلطان الإرهاب والقمع والطغيان. وسالت المطابع كتباً ومقالات وقصصاً تصف إرهابه الأسطوري. تتحدث عن جوع أسماك البوسفور من بعده إلى لحم البشر، تحكي الحكايات عن فجوره الخيالي المجنون، عن جواسيسه، عن المعذبين في سجونه، الأبدية، عن الدماء التي ذبح... صارت «الحميدية» مذهباً من مذاهب الطغيان السياسي، وصارت صورة ذلك السلطان بطربوشه المتهدل وعينيه الصقريتين نسخة من صور الشياطين!....

كرس الرجل فرعوناً آخر! وحين تقع البقرة تكثر فيها السكاكين.

فهل كان عبد الحميد حقاً صاحب تلك الصورة؟ ألم يكن عبد الحميد الظالم عبد الحميد المظلوم أيضاً؟...

الحقيقة ليست دوماً ذات وجه واحد. إن الوجه الآخر لقطعة النقود هو أيضاً جزء منها ومن حقيقتها. إنه الجانب المكمل الذي لا تتم الصورة إلا به.. والوجه الآخر لمن سمي «بالسلطان الأحمر» فيه شيء آخر مختلف كل الاختلاف عن الصورة ذات الجانب الوحيد التي أعطيت له حين سقط أنقاضاً سقوط الهياكل الضخمة!!

سنون طويلة جداً مضت قبل أن يتصدى أحد لرسم الصورة الأخرى. وفي الصورة الأخرى حقائق أخرى تجعله الزعيم المسلم الداهية:

- فيها أن عبد الحميد عاش الفترة التي بلغ فيها الشرس الاستعماري الغربي أوجه. نوع من الكلب أصاب الرأسمالية الغربية في تلك الأيام فأقبلت تلتهم أفريقيا وآسيا قطعة قطعة، وأراد عبد الحميد أن يحمي الإمبراطورية العثمانية من النواجذ المشرعة. كان الغربيون يسمونها «الرجل المريض» ليبرروا تقاسمها فأعلن عبد الحميد في وجههم أشجع سلاح ذكي دفاعي: أعلن سياسة الجامعة الإسلامية. أحيا في شخصه الخلافة التي كانت قد دثرت منذ قرون، أعطى البلاد الإسلامية كلها رأساً للمقاومة، وكياناً شمولياً واسعاً يعوم فيه تلك البلاد بوصفها كتلة واحدة ضد الأطماع الاستعمارية، واتخذ لهذه السياسة كل عدتها: من معهد ديني لتخريج الدعاة، وإكرام للعلماء، ورعاية القوميات الإسلامية المختلفة، واستثمار لدعوات الجهاد، ودعوات النهضة الإسلامية، وتنظيم للجيش... واستغلال لخلاف الدول الغربية لدفعهم عن الدولة، ورفض للقروض منهم.

- وفي الصورة أن الرجل كان كثير الورع والتدين، كثير الصدقات، كثير الإكرام للوعاظ ورجال الدين، وقد أنشأ «الحزب المحمدي» ليقف ضد الأفكار الغربية الغازية، وكان يكره إهراق الدماء وأبطل الحكم بالقتل فجزاء القاتل عنده السجن المؤبد.

- وفي الصورة أيضاً أنه مد الخطوط الحديدية في البلاد فما في بلاد الشام اليوم والعراق والحجاز من هذه الخطوط فهو ابن عهده. ربط العاصمة استامبول بالبصرة والخليج من جهة كما ربطها بالحرمين الشريفين عبر دمشق..

- وفي الصورة أيضاً وأيضاً أنه نشر الأمن في البلاد، وقطع دابر الأشقياء، ونظم طرق المواصلات البرية والبحرية، فأنعش الحياة الاقتصادية رغم ما أصابها من جمود بافتتاح قناة السويس!...

- وفي الصورة إلى هذا وذاك أنه رفض مسايرة الصهيونية، رفض ضغوطها وإغراءاتها، ورفض تسربها إلى فلسطين.

- وفي الصورة بعد هذا كله أنه عرف كيف يسكت الإعلام الغربي بالمال، ويكسب سفراء الأجانب وزوجاتهم بالرشوة والهدايا والأوسمة!...

- وفي الصورة أخيراً أن بلاء عبد الحميد إنما كان من قطعان المتزلفين حوله جماعة «ايوات أفندم» الذين خدعوه! ومن المجموعة الماسونية التي عملت ضده، ومن طائفة الدونمة اليهودية الأصل التي كانت نواة أعدائه.. فهو إذن الضحية لا الطاغية.. وإذا كان له جيش من الجواسيس فلان هؤلاء الأعداد كانوا سادة المكر والتآمر... ولا يقوم للمكر إلا المكر من مثله.

على أن صورة عبد الحميد مع كل أولئك.. تظل تهتز وتتأرجح وتظل موضع الجدل . ذلك أن ظلم الشعوب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.. وقد ضاعت حسنات الرجل أمام سيل المظالم التي اقترف.

وبقي السؤال معلقاً: هل عبد الحميد ظالم أم مظلوم؟

لدى الله تعالى: «الحسنات يذهبن السيئات» أما لدى الناس بالعكس فالسيئة هي الأبقى على ما يبدو.

ويتساءل الأحرار: هل كثير على من كان طاغية الناس وجزار الأحرار ثلاثاً وثلاثين سنة أن يوضع، مهما كان في كفته الأخرى من حسنات، في قائمة الظلام الطغاة.. وإلى الأبد؟

العرب آخر المظلومين

أطياف المسحوقين بالظلم لا تنتهي. ألوان شتى منهم مرت في هذه السلسلة. فيهم الملوك وفيهم بعض الحيوان، وفيهم شعوب مندثرة وأخرى على الطريق، على أننا لم نعرض بعد لآخر هذه السلسلة السوداء. إنهم نحن.. العرب، ولعل هذه السلسلة كلها لم تكتب إلا لتقول هذه الكلمة. وإلا لتقول إن ما يكتبه الناس في التاريخ هو الناس وليس التاريخ. ونحن في جملة من كتب عليهم الناس في هذا العصر أن يحشروا بين المظلومين.

أعرف أن ظلال الغضب أو الرفض تطل على الأعين لهذا الوصف، مع ذلك ـ ولنتعرف بهذا ـ فنحن آخر سلسلة المظلومين في التاريخ.

الشعوب كالأفراد يريحها أن تجد «مزبلة» تلقي عليها بأقذارها وقد مرّ في هذه المزبلة اليهود والغجر والهنود الحمر. وحذار أنهم يحاولون حشرنا فيها. ولندرك هذا جيداً لنصفع به العالم كله. دع عنك العزة القومية فهي كالسكاكين تنغرز في اللحم والأضلاع. ودع مواقف المجاملة التي يلقاك بها الأجنبي أحياناً في بلدك. ودع ما كتبه X والمستر Z في مديح العرب والإسلام وانظر السم الذي تبثه يومياً ساقيات السم، وسائل الاتصال والإعلام وانظر الكتب التي تصدر بمئات الملايين تؤصل هذا الظلم. وانظر المؤامرات التي تدبر بين الشركات (المتعددة الجنسية)

وأجهزة السياسة لامتصاص البترول والأموال والرجال وسحق آخر مقاومة لك بالأرجل، أو انظر جيوش التبشير والاقتطاع التي تطوق الوطن العربي وتأكل أطرافه وقلبه أو انظر أخيراً إلينا نحن كيف يلتهم بعضنا بعضاً.. أرأيت القطط العمياء الجائعة؟! علينا أن ندافع وظهرنا إلى الحائط!

ليس على أرض الله، في هذا القرن العشرين، شعب يحمل عليه من الاتهامات ما يحمل علينا. نقطة لقاء كل أحقاد العالمين. وكل حذر العالمين، وكل استهانة العالمين أصبحنا. لا البرازيلي متهم ولا الصيني بالمريب ولا الكوري ينظر إليه بحذر ولا ابن زامبيا إرهابي ولا بلاد واق الواق، وحدك أنت المريب المتعصب الحقود القاتل.... أنت عربي.

وقد تبدلت القيم. حل العربي محل اليهودي في سلم الشعوب العنصري... قضيتك لا تعالج على مستوى قيم الحق والعدالة والمساواة. إنها أدوات الزينة للأطماع الإنسانية. تخطئ حين تتحدث بذلك. إنها تعالج على مستوى آخر مختلف من القيم: القوة. هذا هو منطق العصر الأميركي. أرأيت كيف يصطرع اثنان في الأفلام الاميركية والناس حولهم يتفرجون؟ أرأيت كيف يكون الحق مع من يطلق الرصاصة الأولى أو من يضرب الضربة القاضية ـ هذه هي القيمة الإنسانية اليوم ولكن من ذا الذي يسمع ويعي؟

إن تفجر البترول نهبوه. وإن زادوا هم أسعاره اتهموك. وإن سرقوا بعد ذلك ثمنه استكثروا عليك الفتات الاستهلاكي. وإن أخطأ عربي في وكر قمار ـ وفيه مئات غيره ـ صرنا جميعاً المقامرين الأغبياء.... ويعيثون في أرضك كيف شاؤوا فإن ثرت تدفع عن أرضك وقمحك فأنت فوضوي أحمر. وإن طعنت فرداً ذبح أولادك، كنت الإرهابي اللعين

وحكمت بألف سنة من الأشغال الشاقة أو سلطت على بلادك مدافع الأسطول أو حوكمت المحاكمة الطنانة الرنانة.... وإن تقدمت بجوازك في مطاراتهم، مرّ الجميع وبقيت وحدك تنتظر.... تنتظر أن يمر اسمك على كل كمبيوترات العالم لعل واحداً منها يصطادك!.

ألست العربي المريب؟

العرب اليوم في حالة حصار. كل القوى تحاصرهم وبأنفسهم يقبلون هذا الحصار وبأيديهم ينسجون قضبانه وجدرانه. لا تسأل عن السبب، تتعقد أمامك الأسباب ويلتبس بعضها في بعض:

• الصهيونية المعشَشة في وسائل الاتصال تتكفل بالتعبئة العامة. تموّن السوق بالمثير الطريف: فيلم هنا. مسلسل هناك. رسامو كاريكاتور يرسمون الجمل العربي. كتاب تشويه يمول. فضائح تفبرك لتنزل السوق على أنها حقائق. روايات تحريض. تحقيقات صحفية.... سيل عرم من كل شيء يذهب بالآلاف من سد مأرب وغير مأرب.

• إسلامك محسوب عليك. صحيح أن هناك بوذيين وبراهيميين ووثنيين ومن لا يؤمنون بدين ولكن الإسلام في نظرهم هو العدو. إنه ليس بعقيدة صالحة إلا عند الاستغلال في التفرقة والطائفية!!

• ضعفك الحضاري يجب أن تدفع ثمنه فلست تصنع السلاح. وأنت أعجز أن تنساح في الفضاء ولو ضربت رأسك بألف حائط. وأنت لا تملك المصانع المعقدة الضخمة ولا تفهمها وأنت حتى في طعامك ولباسك ومتعتك عالة على الجنس المتفوق!!

• ثم إنك العربي الذي يقيم استراتيجياً وجغرافياً في مواجهة الغرب. وبالقرب منه. وقد حاربه قروناً وحاربه الغرب قروناً، بسبب هذا القرب، ورواسب هذه الحروب ما تزال في دماء الغرب المسيطر، لا سيما

وأن لديك البترول وقد تجرأت مرة على إشهاره كسلاح ولديك القوى البشرية فيجب أن ينزع فتيلها الذي قد يشتعل ولديك الثروات فيجب أن تذوب وترجع إلى شحاذة القروض! وهكذا تقاد ضدك حروب التخليف الإجباري في حين يشنعون عليك بالتخلف!!

العقد التي تتحول إلى استراتيجيات لا يعجزك أن تراها في الوجوه المقشرة الصفراء والعيون التي أزرفت من اللؤم، وفي التصرفات «طلعها كأنه رؤوس الشياطين». بماذا تقف أمامهم؟ بقيمك؟ بئس الموقف. إن لهم القيم النقيضة تماماً. كرمك عندهم تبذير سخيف، تضحيتك سذاجة وهبل، عفاف امرأتك تخلف يضحكون من رموزه. مثلك الروحية تعصب أعمى وضيق أفق... بحضارتك؟ إنها للمتاحف الانثروبولوجية! بتاريخك الماضي؟ ومن يبيعك به رغيف خبز والكل ينظر إلى المستقبل؟ بشهدائك؟ حتى الشهداء قبلنا أن نسميهم إرهابيين!!

متى ترى يفتح مارد الخدر عينيه لكي لا يكون آخر المظلومين!

الفلسطيني الذي في القاع

كالخيول المجنونة يركضون بسلاحهم من باب لآخر.....
كعدوى الوباء يطاردون........
كظلال الشيطان يتهمون...... ومأساتهم تدور كحجر الطواحين حول ذاتها.
تسحقهم وتدور.......
ولا تسأل شفة شفة أخرى: من هؤلاء؟.....
الكل يعرفهم بسيماهم: فلسطينيون!!
وتبلغ مأساة الظلم هنا أوجها الشيطاني.

حين تكون عربياً فلسطينياً فإنك في البؤرة من جهنم. كل الأحقاد الأجنبية والعربية معك هناك بحاراً من اللهب.

اللحوم كلها طرية على القوارض أما لحم الفلسطيني فهو لحم السوق المباح للجميع. ولا تسأل لماذا؟ ربما لأن القيم الإنسانية لا تزال تصرخ فيه. لا يزال بشفة مثقوبة وجسد مثقوب وأرض مثقوبة شاهداً على المأساة! والوجع صار في العظام!....

بين الفلسطينيين: الليل وحده يتجول بعيون عمياء! وفي الظلمة تستوي الأبعاد ويصبح لكل شيء لون واحد.... وحدها الخفافيش مصاصة الدماء! والأفاعي تتحرك في الليل. وحدهم اللصوص يرتعون!

ويصطدم الفلسطيني بالفلسطيني ويختصمان ويقتتلان..... ثمانية فصائل ـ عشر بنادق ـ خمسون رأياً وطريقاً ولوناً.... بعد حرب سنة ١٩٤٨ كان الناس يتساءلون لماذا انهزم العرب وهم سبع دول؟ وكان الجواب: لأنهم سبع دول. ترى أما آن للفلسطيني الظالم لنفسه أن يفهم الدرس؟ أما آن أن يعرف أن اسم إسرائيل ـ كما يزعمون ـ إنما صيغ من أوائل أسماء هذه الدول.

وكما تصفر أوراق الكروم وتتساقط ثم تتجدد كذلك يسقط الشهداء فوجاً ويتحول كل منزل ينزله الفلسطيني إلى مقبرة من نار. فحيثما وجدت بصمة قدم محروقة على الأرض عرفت أن من هنا مرَّ فلسطيني! ولكن متى تتوحد الصفوف ومتى يرمي الجميع من بندقية واحدة؟ متى يخجل أمثال ذلك الفصيل الذي يقدم يوم الخروج من بيروت قائمة برجاله فإذا بهم ٦٢ شخصاً فقط بمن فيهم يغلقون دكانهم؟ والألقاب التي يمرجحونها على الورق؟ ألف خنجر في هذا القلب المرزأ. ألف حريق يلتهمه ألف ثقب ينفجر فيه لكن القلب مع ذلك يبقى على النبض....

وتنتصر الحياة! متى يرفع الجميع هذا القلب الواحد إلى أعلى.....

إلى أعلى بقلب واحد؟.....

وأهلهم العرب ألا يظلمونهم؟

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند!

لهذا الظلم ألف سبب وألف طريق... على أن أهمها أنهم نشاز على السكون المرين! لأنهم يستعملون الرصاصة في زمن الصمت الأكبر لأنهم يصرخون والآخرون «صم بكم عمي فهم لا يعقلون» ولا يبصرون.

نجحت القوى المسيطرة في ترويض رعاياها. في نزع الألسنة وفقء العيون ولكن الفلسطيني لا نظام يضبط إيقاعه فتكفلت به بعض الأنظمة.

بحار اللهب تنطفئ في المستنقعات الواسعة. تغرق، تنتحر. في حين تشرب الشمس الأصوات الناصعة. وعلى القمم آلهة نحاسية ترن ترن! بطونها تقرقر مثل النراجيل في الفراغ، مر عمر كامل من الاسى، مرت أربعون سنة على المأساة، مرت اثنتان وعشرون سنة في أيديهم يبحثون عن فيء شجرة تحت شمس فلسطين، فلا يجدون سوى حفرة تحت المخيم المحروق هي المأوى الأخير! أهم المنبوذون الجدد في عصر المساواة والحرية وحقوق الإنسان؟

أكلوا الزقوم والسحت. وألجأهم أكلة لحومهم إلى أن يسألوا أهل الدين: هل يفترسون الجثث؟ لا لا تسألوا أحداً ولو أكلوا لحومكم. أعرف أنه اليأس المملوء يأساً. ولكن مرة أخرى لا وألف لا! كل التهم تحملونها على أكتافكم وهناً على وهن، ولم يبق إلا أكل لحم البشر!!

أعرف أنهم لم يتركوا شبراً زرعتم به البنفسج والخبيزة إلا زرعوا فيه قنبلة. لم يتركوا طفلاً إلا قصفوه، من وحوش الجو زرعوا فيه قنبلة. لم يتركوا أملاً إلا الموت («وأمل» هي الموت).ومع ذلك. لا! لقد ضل من يتصور أن ذلك يحرك الأصنام المتاجرة بالجثث، سيبقى «كل شيء هادئاً على الجبهة الغربية» والجبهة الشرقية، وفي اليمين واليسار ولدى الصامدين والمستسلمين... و«كل شيء على ما يرام يا سيدتي المركيزة»!

ولن يبقى إلا الاتهام الوحشي. ولن تقوموا له.

لقد كتب .... الفلسطينيون في قضيتهم ما يوازي عدة قرون من المطر وأطناناً من خبز الشهادة. ولكن أحداً لا يجرؤ أن يقرأ ما كتبوا!

تحولت البلاد كلها إلى حظيرة نعاج لأهليها! أو معسكر اعتقال وصار الفلسطيني التائه هو الرعب الوحيد. هو الوباء الذي يجب أن يكافح وهو الضمير الذي يمزقنا صارخاً ويجب أن يسكت ..... ولكن كيف تدافع عن نفسك وأنت تنتحر؟ كيف تدافع عن دمك في «بير زيت» وأنت تسفحه في تل الزعتر وشاتيلا؟ ترى أليس يخطئ من يظن أن اغتيال الفلسطيني اغتيال لفرد ولا يمكن أن يكون اغتيالاً للقضية؟ متى يفهمون أن الأرض وما عليها أوسع من أن تبتلعها أبواق الدعاية؟ وسوف تظل تحوم وتحوم كأشباح الانتقام؟...

اثنان لا يتهادنان دقيقة... شبح الضحية والضمير المجرم![1]

---

[1] الاسم للمفارقة يمكن أن يتكون من: Israel ,
Iraq, Syria,Roy,of Jor,Arabia,Egypt,Lebanon.
وهي مفارقة سجلها الصهيونيون.

تحدي الظلم

القضية الفلسطينية لا تزال كالنار تحرق من يحملها!

وبقدر ما تحملها القوى السياسية والنظم خارج إطارها لتصبح قضية مفاوضات بالقدر نفسه تغلغل في الضمائر كالجرح الناغر لا اندمال له ولا غفران لمن يتنكر له.

العد التنازلي في القضية بدأ منذ زمن طويل.... طويل......

كانت فلسطين قضية البلاد العربية كلها قبل سنة ١٩٤٨ طالبت يومذاك بكل فلسطين....

ثم كانت قضية البلاد التي حولها سنة ١٩٦٧ طالبت ببعض فلسطين...

ثم حالت قضية تحريك لا تحرير سنة ١٩٧٣..... ولم تطالب بشيء...

ثم صارت قضية أهلها وحدهم وطلبوا مكاناً على أرض فلسطين....

ثم .... أصبحت تسوية سياسية على مائدة مفاوضات.... في حين صرنا نقتل الفلسطيني بأيدينا لأنه صورة ضمائرنا ولأنه يحمل قضية معه كالدمل الموجع لا ينسى ولا يسمح للآخرين بالنسيان......

الفلسطيني الذي كان الجرح غدا المشكلة:

ـ مشكلة للإسرائيلي الذي لا يستطيع إبادته ولا يحتمل وجوده، فهو ينبع له في كل مكان وفي اللامكان... حتى في الأحلام كالكابوس.

ـ مشكلة للغطرسة الأميركية التي استأجرت إسرائيل قاعدة أميركية وحاملة طائرات تستخدمها في «حرب التخليف» التي تقودها ضد العرب.

ـ مشكلة للنظم العربية: ماذا تفعل بهذا الثائر؟ فلا هي تتركه يستقر ولا هي تتركه يعبر ولا أحد يرغب في قبوله.... وتحول المخيم تارة إلى «غيتو» وتارة إلى معسكر اعتقال.

ـ مشكلة أمام ذاته: من هذا؟ مناضل ويسمونه بالإرهابي عربي ويعزل بأنه فلسطيني. إنسان ويطارد بكل قوى الأرض!...

اجمعوا الفلسطينين في «سلة» وارموهم في البحر فهل ينهي ذلك القضية؟ هل يفتح ذلك طريق «السلام» الذي يلهثون حوله؟

«الفلسطينية» لم تعد صفة لأهل فلسطين العرب لقد غدت مذهباً في «الشهادة» لوجه الله والحق. غدت عاصفة تنفجر في صدر كل عربي. أصحاب عقول النعامة هم الذين يتصورون أنهم بإخفاء رؤوسهم ينجون من الانسحاق الأميركي الإسرائيلي المطلوب لهذه المنطقة. بر السلام الذي يتلمسونه في الأفق لن يروه.... ولو زحفوا على البطون وعلى الموج العاصف، أما أن تكون عبداً ويد النخاس الأكبر في رقبتك أو لا مكان لك حتى في أرضك. أليس هذا هو القانون الذي طبقته أميركا على الهنود الحمر وأبادت الهنود الحمر؟

والإنسانية العمياء؟ ماذا تنتظر منها غير الظلم الأعمى؟

من حق اليهودي أن لا ينسى أنه مضطهد وأن لا يدع أحداً ينسى اضطهاده. عشرون مليون روسي التهمتهم الحرب العالمية الثانية لا

يذكرهم أحد. وحدهم يهود أوشوتيز يجب أن يذكروا كضحايا لتلك الحرب! الفرنسيون، البولونيون، الرومان، التشيك، الألبان، المغاربة، السنغال، الماليزيون، أهل الفلبين، الأندونيسيون كلهم ذبحوا واضطهدوا. وحدهم اليهود يجب أن يذكروا كضحايا للإنسانية! اللاسامية هي الجريمة الإنسانية الكبرى. أما التعصب العرقي اليهودي الذي يرفض ابن المسيحية من يهودي فأمر طبيعي. ولئلا ينسى اليهود فإن لهم الحق في محاكمة البشر جميعاً وليس فقط تلك السلسلة من أيخمان إلى ديمغانغوك إلى أن تثبت براءتهم من بعض اليهود! ولئلا ينسى اليهود منحوا ثلاث مرات جائزة نوبل. نالها أغنون وبيغن وفايزل....

أما العربي الوحيد الذي نالها فنالها لأنه نسي..... لأنه نسي الحق والضحايا والعدل في الأرض وفي تقرير المصير لشعبه.. ونالها مناصفة مع إرهابي يهودي!! إنسانية «الغرب» تعمل كل شيء ضد خطر النسيان لدى اليهود وتعمل كل شيء ضد خطر التذكر لدى العرب... وتعمل المستحيل لنقل الإرهاب من تاريخ بيغن وشامير وإلباسه لعرفات ومجموعة «الآباء» الباقين......

وتستمر السنوات في التوالي لا النشيد داخل المخيمات ينتحر ولا ملحمة القتل المزدوجة تنتهي. ويتوالد المظلومون ويطعمون الأفواه الجائعة أجساداً وأملا. يحرقون المعتصم وأبا تمام وملحمة زبطرة كلها على فوهة رشاش وأمام جبن قناص، ليس ثمة قبر يتسع لكل تلك الأجساد، يلتهمها، يسكتها، يغيبها مرة واحدة إلى الأبد. ولأن الصراخ ضمن أجسادنا فنحن لا نستطيع الفرار منه ...إنه يعوي في الانساغ والشرايين لأن للمذلة ألف شكل وأما الموت فله شكل واحد وقد اختاروا الموت...

وتـدوس القـدم العسـكرية الوحشـية علـى الأعنـاق تـدوس تـدوس والأنفاس تحشرج.....تحشرج......تحش......تحش...

ولن ينتهي الظلم أبداً ولكن النضال ضده لن ينتهي أيضاً إلى الأبد.

وصبراً آل «ياسر» على الظالمين. إن موعدهم الصبح «أليس الصبح بقريب»؟...

وريث ملوك كنده

أفغانستان.. بلد على الألسنة اليوم. ويحدثونك عن الإسلام فيه وعن شعبه العصي عصيان جباله المردة. فهل أحدثك من ذكريات الإسلام الأولى في ذلك البلد؟ عن فصل من فصولها المأسوية جرى مع وريث ملوك كنده: عبد الرحمن بن الأشعث.

المسرح الأرضي هناك ما يزال إلى اليوم على حاله. وهل يتغير المسرح الأرضي؟ منخفض سجستان السهلي في الغرب بأنهاره وبحيرته. فإذا جاوزته انتصبت أمامك الجبال جدراناً بعد جدران وقمماً لزئير الرياح وأمواجاً من الصخر الأبي اللانهائي تكاد تحسب معها أن الدنيا قد حالت صخوراً تتعمم بالغيم ووديانا ضيقة كأنما شقتها السكاكين في الصخر، قد أكلت الأنهار والمياه أعماقها البعيدة فهي رعب الصدى ورعب الطير معاً. سفوحها الأولى للعنب والجوز والفستق والحور وأشجار الدلب الدائم الخضرة، أما الأعالي فللصنوبر والبلوط والكروم البرية واللبلاب والزيتون البري والعرعر والياسمين والورد أيضاً. ولا تسل عن القمم. القمم فيما وراء أربعة آلاف وخمسة آلاف متر هي ملك العواصف الثلجية المرعبة والبرد المحرق وصراخ الجن.. وتظل ترتفع، ترتفع حتى تصل هضبة (بامير) هضبة الدنيا الكبرى وسقف العالم!. إنها فوق خمسة آلاف متر!.

في حنايا هذه الجبال تقع كابول. . العاصمة اليوم والعاصمة في العهد الإسلامي الأول على السواء. يوم وصل الفاتحون المسلمون، أيام عثمان بن عفان، أرض سجستان ما توقفوا أمام تلك الجدران الجبلية. اقتحموها. اقتحمها عبد الرحمن بن سمرة حتى وصل كابول، وخرب في بلدة الرخج صنمها الذهبي الذي كانت عيناه من الياقوت الأحمر، فالبلاد كانت على البوذية وإن كانت الطبقة الحاكمة من البراهميين. وما استطاع الفاتحون تثبيت سنابكهم في الجبال. وما كان المسلمون في العدد ولا في العدة بالذين يستطيعون فرض أنفسهم فتراجعوا إلى السهول.

تكرر الأمر كرة أخرى أيام معاوية. وفي هذه المرة أسر الشاه نفسه وهو من أسرة كشان شاهي. ولكنه تخلص من الأسر بالنطق بالشهادتين وبدفع الأتاوات. وتكرر الأمر كرة ثالثة أوائل أيام الحجاج. كان الحجاج مصراً على دفع حدود الإسلام الشرقية إلى الشرق. ولكن الحملة هذه المرة كانت كارثة! الأرض حاربت مع أصحابها، وتمزقت حملة الحجاج على الصخور والوديان بالكمائن المنصوبة وأسر قائدها عبيد الله بن أبي بكرة فاضطر أن يفدى نفسه وأسرى جيشه بسبعمائة ألف درهم!

وهنا يدخل عبد الرحمن بن الأشعث، الأمير الكندي مسرح الأحداث، ويأتي دوره.

الهزيمة هزت الحجاج هزاً، إنه لا يستطيع أن يترك الحدود الشرقية نهباً لرتبيل كشان شاهي يلعب بها كما شاء. الجيش الذي أعده للثأر سمي في التاريخ: جيش الطواويس لكثرة ما أنفق الحجاج في تجهيزه، وفي إغراقه بالسلاح والعدة. كان فتنة المصرين: البصرة والكوفة حين تحرك بأربعين ألف مقاتل.

الرجل الذي اختاره الحجاج لقيادة حملة الثأر كان عبد الرحمن بن الأشعث. وكان هو نفسه طاووساً من الطواويس.

يصفونه بأنه كان معجباً بنفسه. ذا نخوة وأبهة. ولا يرى أميراً فوقه! فوراءه نسبة العريق في ملوك كنده، وزعامته لقبيلته الكبرى القوية وشجاعته المشهودة عند النزال.

وعلى الرغم من أن الحجاج كان يبغض فيه غطرسته واعتداده بنفسه وقد قال مرة عنه: «انظروا إلى مشية المقيت. والله لهممت أن أضرب عنقه» إلا إنه لم يجد أفضل منه لمثل المهمة الصعبة، مهمة تثبيت أقدام الإسلام حتى كابول!.

ومضى عبد الرحمن بالجيش. وضع خطته العسكرية على أساس السير الحذر الثابت في وقت معاً. لا يأتي حصناً إلا خلف فيه قائداً من المسلمين، ولا يتقدم خطوة إلا أقام العمال ونظم أعمال البريد والمراقبة فوق الجبال وعلى الشعاب وربط الحاميات بعضها ببعض. وحين أدركه الشتاء توقف. قال لجيشه: نتوقف حتى نجبي البلاد ونعرفها ويجترئ المسلمون على طرقها.

كانت الخطة حكيمة جداً. لكنها لم تعجب الحجاج فقد كان تواقاً إلى نصر سريع يمحو الهزيمة المرة السابقة. وأصر ابن الأشعث على خطته وأصر الحجاج.. وانفجرت الأزمة بين الاثنين حين أرسل الحجاج كتاباً يتهم فيه ابن الأشعث بالجبن والضعف والتواني في دماء المسلمين. وجن جنون الأمير العتيق المنصرف بكل روحه للجهاد، والمؤمن بسلامة خططه. كان الكتاب جرحاً على كرامته. طعنة للعنفوان والإيمان. وجمع الجند فبايعوه على العودة إلى العراق وخلع الحجاج!.

وحين تحرك عائداً بعد مهادنة رتبيل، انضمت إليه قوات من الحاميات الأخرى بعد قوات. وقبل أن يصل العراق كانت جموعه كافية لإغرائه لا بخلع الحجاج فقط ولكن بخلع الخليفة عبد الملك بن مروان الذي يؤيده!.

وأعلن ابن الأشعث خلع الخليفة وتلقب بناصر المؤمنين. وكان ثم نبوءة بين الناس تنتظر ظهور رجل من قحطان ينقذ الناس فتسمى ابن الأشعث بالقحطاني أيضاً. وبايعته قواته ـ وكلها عراقية ـ على كتاب الله وسنة نبيه وخلع أئمة الضلالة وجهاد المحلين.. كل غضب العراق على بني أمية تجمع في حركة ابن الأشعث.

وهزمت جيوش الحجاج الواحد بعد الآخر أمام هذا الثائر الذي ما لبث أن دخل البصرة.... وراحت طلبات الاستنجاد من الحجاج تركض إلى الشام واحداً بعد الآخر.... الهزائم توالت عليه لدرجة أن عبد الملك بن مروان نفسه بعث يفاوض ابن الأشعث على خلع الحجاج وتعيينه مدى الحياة على أي بلد يريد في العراق! السيوف التي يقودها ابن الأشعث كانت أقسى تهديد واجهه العرش في الشام. لقد امتدت الحركة الانقلابية ثلاث سنوات وهي كل يوم في اشتداد.

وكاد الثائر يقبل. ولكن أهل العراق رفضوا فاضطر لقبول المعركة التي دامت ثلاثة أشهر. كانت في دير الجماجم بالعراق وكانت كاسمها معركة الجماجم. كانت معركة حياة أو موت بالنسبة للطرفين...

وانجلت في النهاية عن هزيمة ابن الأشعث. وتمزقت جموعه فلولا هاربة! ولم يجد الأمير الثائر من ملجأ سوى العدو الذي كان يحاربه. لم يجد سوى رتبيل.. فر إليه في كابول فتلقاه بالترحاب. إنه صيد ثمين! ولاحقه الحجاج لدى رتبيل وطلب إلى هذا الشاه في كتب متوالية تسليم

من سماه «بالكذاب الشرود الغدار الفاجر المائق» وهدده بالقتال إن لم يفعل وبوضع الأتاوة عنه سبع سنين إن هو فعل وبعدم حربه بعدها..

ودار بالوساطة أحد التجار. وقبل الشاه رتبيل عرض الحجاج السخي مقابل تسليم رجل لا يربطه به رابط. وشهدت سطوح كابول الجبلية خروج ابن الأشعث في القيود والحراس ليسلم إلى الحجاج.

وعند بعض الوديان السحيقة انتهز ابن الأشعث غرة من حراسه فرمى بنفسه في الوادي السحيق.

هذا الأمير العاثر الحظ الذي وقع بين أسنة الصخور وأسنة الحجاج والذي كان أحد جسور الإسلام إلى أفغانستان، أليس بمظلوم؟...

كلمة أخيرة

وبعد....

فهؤلاء بعض من بعض المظلومين في التاريخ وأمثالهم عشرات الألوف بعد عشرات الألوف.

فالتاريخ محشر كبير للظالمين وللمظلومين على السواء. وفيه الملايين من هؤلاء وهؤلاء وشرط وجود الآخرين أن يوجد الأولون. فلا مظلوم بدون ظالم. وذلك الجائع الذي يبحث عن لقمة الخبز في القمامة يدين له بالدين الكبير ذلك الموسر الذي يتقيأ الغني تقيؤاً. وإذا كان من ظلام بعدد النجوم فثم مظلومون عدد الرمل والحصى والتراب وما يطفو على السطح إلا جزء من عشر معشار من لا تدري أنت ولا أدري أما به. وإني لأرثي للأكباد التي احترقت دون أن تجد من يكفكف دمعها وأبكي لمن داسته عجلة التاريخ كيف يدافع عن نفسه. وإذا كان يأمل أن يأتي يوم يصل فيه إلى الإنصاف فإني أخشى ألا يكون في «التقويم» مثل هذا اليوم، أخشى ألا يأتي ......

ألا يأتي أبداً.....

الفهرست

صدر من سلسلة أوراق من التاريخ

١ ـ بين الأدب والتاريخ
٢ ـ المغامرون في التاريخ
٣ ـ من ذكريات الغزو الفرنجي
٤ ـ المكتشفون في التاريخ
٥ ـ ١٠٠ من معارك الجهاد في الإسلام
٦ ـ العرب في التاريخ
٧ ـ المنسيون في التاريخ
٨ ـ رجال وشياطين
٩ ـ المصادفة في التاريخ
١٠ ـ قضايا في التاريخ
١١ ـ صور أندلسية في التاريخ
١٢ ـ المظلومون في التاريخ

تحت الطبع

١٣ ـ اليتامى في التاريخ

المظلومون في التاريخ/شاكر مصطفى . ــ ط ٢ . ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٩٧ . ــ ١٦٤ص ؛ ٢٠سم . ــ (سلسلة أوراق من التاريخ ، ١٢) .

١ ــ ٩٢٠ ع م ص ط م ٢ ــ العنوان ٣ ــ مصطفى ٤ ــ السلسلة

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ١٩٩٧/١/٤٧ رقم الإصدار ٧٢٥

رقم : ٢٨٢٤٠

تاريخ : ١٩٩٦/٨/٢١

هذه السلسلة

هي مجرد أوراق متناثرة، كأوراق الخريف لا يجمعها إلا أنَّ من تتحدث عنهم مرُّوا في خاطر الزمن. ثم طواهم الغيب طيَّ السِّجلِّ للكتب. وهي لا تزعم أنها تحمل عِلْماً للمختصين فمدى أطول أوراقها صفحات ثلاث أو أربع. ولا أنها تجترح كشوفاً وأسراراً ما سبقها إليها سابق. فكلها سِيَرٌ لطيوف عبرت الماضي وتركت وراءها الغبار. لكنها تزعم، بلى، إنها طرائف من هنا وهناك وقصص شاردة هي حصيلة عمر من الدراسات ذابت فيها العيون وضاعت على أحرفها الليالي والأقمار وفيها ما فيها من الزاد الثقافي، كَرْماً على درب.

ولقد تكون كتبت ليأنس بها من يحب المعرفة التاريخية أو من يشدو بعض الراحة هرباً إلى عالم الآخرين. لكنها من وراء هذا وذاك تحمل رسالة، إنها دعوة للقراءة السريعة المفيدة. ففي عالم السرعة وزحام المشاغل والوجبات الخفيفة. هذه وجبات ثقافية أسرع وأخف وأمتع!

أتراها تنجح في حمل هذه الرسالة؟